جُغرافية ليبيا وعُمرانها من خلال مخطوط الرِّحْلَة الحِجَازيّة لابن عبد القادر الفاسي[1] 1212-1211ه/1797-1796م

إعداد:
د. رمضان محمد رمضان الأحمر
عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ جامعة بنغازي
ramdan.alahmar@uob.edu.ly

المستخلص:

حَظِيَت كُتُب الرِّحْلات بأهمية خاصة في عملية التدوين التاريخي وفي الكشف عن تاريخ الشعوب والأمم والأجناس. ومن هذه الرِّحْلات كانت الرِّحْلات المَغْربيّة إلى الأراضي المقدسة، التي عُرِفَت في التاريخ بالرِّحْلَات الحِجَازيّة. وقد كان لليبيا نَصيباً وافراً من كتابات هذه الرحلات، ولاسيّما أنّ مُدُن ليبيا وقُرَاها وأراضيها كانت بمثابة حلقة الوصل والطريق التي تربط ما بين البلاد المَغربيّة والمَشرقيّة. وفي هذا البحث نهدف للتعريف بإحدى هذه الرِّحْلَات الحِجَازيّة، والعمل على استخلاص ما جاء فيها عن ليبيا من مشاهدات ومعاينات دَوّنَهَا صاحبها في أثناء الرحلة. وهذه الرِّحْلَة لا تزال مخطوطاً لم يُنشر بعد، وهي المُعَنْوَنة بـ"رحلة ابن عبد القادر الفاسي من مدينة فاس" . وباستخدام المنهج الاستقرائي التاريخي الذي يعتمد على استقطاع النّصوص التاريخية من مصادرها، ثم استقرائها وفهمها وتوظيفها بعد ذلك، تَمَكّنَت الدراسة من التّعَرّف على جُغرافية ليبيا وعُمرانها من خلال ما أورده صاحب الرحلة من تدوينات في مخطوطه. كما تَوَصّلَت الدراسة بعد الانتهاء منها إلى أنّ مادة المؤلف عن هذا الموضوع بالخصوص جاءت دقيقة ووافرة وغَنِيّة بالتفاصيل التي لا نجدها عند غيرها من الرِّحْلَات، مما جعل هذه الرحلة متميزة في مضمونها، ذات أهمية في مخطوطها. وقد انتهت الدراسة بتوصية إلى المهتمين بالتاريخ اللّيبي إلى زيادة الاهتمام بمخطوط هذه الرحلة، والعمل على استخراج ما جاء فيه من مادة تاريخية، تُفيد في الأرجح في الكشف عن أوضاع ليبيا السياسية ومعرفة أحوال أهلها الاقتصادية والاجتماعية إلى جانب الثقافية، وذلك في الفترة المعاصرة للرحلة.

الكلمات المفتاحية: الرِّحْلَة، ابن عبد القادر، ليبيا، جُغرافية، عُمران.

المقدمة:

الحمد لله رَبِّ العالمين، والصلاة والسلام على سَيّد المرسلين محمد المبعوث رحمةً للعالمين، الذي أرسله الله تعالى بالهُدَى ودين الحق بشيراً ونذيراً وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

لا يَخْفَى عن الكثير من القُرّاء والكُتّاب والباحثين في المجال التاريخي، ما للرحلات وأدبها من أهمية كبيرة في عملية التدوين التاريخي للأقاليم والبلدان والمدن بصفة عامة، ولحياة الأمم والأجناس والشعوب والمجتمعات بصفة خاصة. فَكُتُب الرّحّالة والجُغرافيين والمسافرين والعابرين تُعَدّ من أهم مصادر الكتابة التاريخية، حيث يُعتبر أصحابها شهود عيان يُدَوّنون في كتاباتهم ما شاهدوه ورأوه وعاينوه بأنفسهم عن المجتمعات التي مَرّوا منها أو عَبَروا من خلالها، فرواياتهم عنها بالخصوص تُعَدّ على الأرجح من أصدق الروايات وأَصَحّها، إذ يُوردونها في الغالب بدون ضغوطات سياسية وتعصبات عرقية وتَوَجّهَات مَذْهَبيّة ونزعات جِهَويّة ومَنَاطِقِيّة وقبلية إلى آخره. مقارنةً بالمصادر التاريخية الأخرى المنقولة والمكتوبة عبر السرد والتواتر من جيلٍ إلى آخرٍ ومن عصر إلى عصر، فهي على الرغم من أهميتها -باعتبارها أساس المصادر

[1] مراجعة لُغَويّة: د. مجيد محمد محمد حبريشة. عضو هيئة التدريس بقسم اللغة العربية جامعة بنغازي.

التاريخية وأكثرها كَمّاً وكَيفاً- إلا أنها قابلة للتزوير والتغيير والتّطويع بقصدٍ على حسب أهواء جامعيها وأمزجتهم وتعصب كاتبيها وتحيزهم إلى جانب غيرها من الأسباب، أو من غير قصدٍ بسبب كرور الأيام والسنين وما يحدث فيها من تَقَلّبات سياسية وتغييرات ديموغرافية تؤثر على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، مما تُلقي بظلالها على ظروف تواتر الروايات وانتقال سردياتها ومدوناتها من جيلٍ إلى آخر، وما تشهده في أثناء ذلك من تغيير واختلاف وتدوير في نقل الحقيقة التاريخية، وهذه سِمة من سِمات الخلق التي اعتادها البشر.

ومن طُرُق الرحلات التي نَالت حَظّاً وافراً من مُريديها وتَفَوّقت على غيرها من الرحلات، هي الرّحلات المغربية المتجهة لأرض الحجاز قاصدة بيت الله الحرام، المعروفة في أدب الرّحلات بالرّحلات الحجازية، التي هدف منها أصحابها الحَجُّ في المقام الأول ثم طلب العلم وقد تكون معها تجارة للاستفادة. وكان من المعتاد عند أغلب أصحاب هذه الرحلات ولاسيما إن كانوا من أهل العلم والدين أنْ يكتبوا ما يُشاهدونه في رحلاتهم عن أحوال الأمم والشّعوب والمجتمعات والقبائل المختلفة التي مَرّوا بها، وينقلون انطباعاتهم عنها ويدونونها في كتبهم، فَجَاءت كتاباتهم في الغالب غَنيّة ومتنوعة تتطرق لجوانب حضارية عدة منها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية وغيرها. لذلك نالت الرحلات المغربية وأصحابها صيتاً واسعاً في أدب الرحلات، وكانت من الكثرة والتنوع والتعدد حتى وُضِعَ فيها مُعجمات ومَوسوعات وفهارس، في محاولة للتعريف بها وحصرها وترتيبها[1].

ومن المعروف أنّ أصحاب الرحلات المغربية كانوا يخرجون من مدنهم وقراهم سواء أكانت الرحلة تنطلق من الأندلس أم من بلاد المغرب بأقسامه الثلاثة: الأقصى والأوسط والأدنى، فهم يسيرون في طريقهم - إذا كانت الرحلة بَرّاً- ويعبرون الطُّرق والمسَالك والأراضي والفَيافي متنقلين من بَلدٍ إلى آخرَ صوب وجهتهم الحجازية، وكان لزاماً عليهم في الغالب أنْ يمروا بالأراضي الليبية (طرابلس وبرقة)، ولاسيّما من الطريق الشّمالية المؤنسة المحاذية للبحر[2]، إلى أنْ يَصلوا إلى الأراضي المِصرية، ومنها إلى الحجاز لأداء فريضة الحَجّ وطلب العلم وغيره.

فَلا يَغيب عن الناظر ما كان لليبيا من نَصيب وافرٍ من مُدَوّنات هؤلاء الرحالة، ولاسيّما أنها كانت الشّريان النابض والطريق الموصلة الرابطة بين البلاد المغربية والمشرقية، فكانت أراضيها ومُدُنها وقُرَاها وواحاتها محطات لهؤلاء الحُجّاج، يتزودون منها بما يعينهم على السّفر إلى جانب الْمَكْثِ والراحة. لذلك جاءت مادتهم عن البلاد الليبية وفيرة وزاخرة ومتنوعة، وهذا ما التمسناه من عدد من الرحلات المغربية، من أمثال رحلة العَبدري سنة 688ه/1289م، والتّجاني سنة 706ه/1306م، والعَيّاشي سنة 1072ه/1661م والحَشَائِشي سنة 1313ه/1895م، وغيرهم الكثير.

[1] من أمثلتها: كتاب رحلة الرحلات - مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، في جزأين (التازي، 2005م). كذلك موسوعة الرحلات الحجازية في خمس مجلدات (بعلي، 2020م). رحلات المغاربة والأندلسيين إلى الحجاز في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين (الحساني، 2010م).

[2] كان الجغرافي البَكريّ (ت: سنة 487ه/1094م) يُسَمّي هذا الطّريق الشمالي السّاحلي بـ"الجادة" (البكري، المُغْرِبُ، ص14). وقد فَصّلَ قُدَامَة بن جعفر(ت: سنة 337ه/948م) مراحله لمن يرغب في السّفر من شرق ليبيا إلى غربها، مُعَرّفاً بمناطقه ومَحَطّاته ومُدُنه التي يَمرّ بها المسافر، ذاكراً أسماءها، ومُبيّناً المسافات التي بينها بالأميال، مردفاً بعض تفريعاته التي تدخل على طريق أخرى مُحَاذية له جنوباً تُسَمّى "السِّكّة"، ولاسيّما عند منطقة سُلُوق، ومن ثَمّ ترجع من جديد من عند مدينة أجدابية، وتنضم إلى الطّريق الرّئيس السّاحلي الشّمالي الذّاهِبَ إلى بلاد المغرب (الكاتب البغدادي: الْخَرَاج وصنعة الكتابة، ص220-225).

وإنّنا في هذا المقال نهدف للتعريف بإحدى الرحلات الحجازية القاصدة بيت الله الحرام، التي نالت منها ليبيا ما نالته من غيرها من الرحلات المغربية -من هذا الرّحّالة المَغَاربي- من المشاهدة والمُعاينة ثم الكتابة والتدوين. وإنْ كان كتاب هذه الرحلة ما يَزال مخطوطاً لم يُحَقّق بعد، ولم تُنشر فوائده للقراء والمتخصصين. وكما قيل: **"ما لا يُدْرَكُ كُلُّهُ لا يُتْرَكُ جُلُّهُ"**. لهذا ارتأينا أنْ نَستقطعَ منه ما يخص البلاد الليبية من جزئيات ونصوص وفقرات، وأنْ نستخلص منها -أي الجزئيات والنّصوص والفَقَرات- ما يُفيدنا في توضيح جُغرافية ليبيا وعُمرانها على ضوء ما ذكره صاحب الرحلة ودَوّنها في مخطوطه، على أنْ نعمل على استخلاص ما احتوته هذه الرحلة من جوانب أخرى وفوائد متعددة أوردها المؤلف فيما يخص البلاد الليبية وأهلها، لكي نستفيد من مَادّتها ونعمل على توظيفها في مقالات أخرى، في سَعْيٍ حَثيثٍ مِنّا لِنُضيف شيئاً -ولو كان قليلاً- للمكتبة التاريخية الليبية.

ولن نخرج في عرضنا لمادة هذا المقال وطرح موضوعاته عن المحاور الآتية:

المقدمة، وها نحن فيها الآن.

أولاً: ترجمة المؤلف والتعريف بمخطوط الرحلة.

ثانياً: توضيح ما ذكره المؤلف عن جُغرافية ليبيا من خلال مخطوط رحلته.

ثالثاً: معرفة ما أورده المؤلف عن عُمران ليبيا من خلال مخطوط رحلته.

الخاتمة.

التّوصيات.

أولاً: ترجمة المؤلف والتّعريف برحلته.

1. ترجمة المؤلف:

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي الفهري؛ فَقيهٌ مَالكيٌّ مَغربيّ من أصحاب الرحلات (ابن سودَة، دليل، ص390)، وهو أحد أعضاء الأسرة الفاسيّة الكبيرة التي أنجبت العديد من العلماء المشهورين والأدباء اللّامعين (الأخضر، التّاودي بن سُودة، ص172). فالمترجم له سَليل بيت علم وصلاح، نبغ فيه عدد من العلماء الذين طبقت شهرتهم الآفاق، البيت الفاسي ذو المكانة المرموقة بين بُيُوتَات فاس (ابن عبد الرحمن الفاسي، الإعلام، ص6-7).

وقد وُلِدَ أبو العباس بمدينة فاس المغربية سنة 1166ه/1753م، في محيط عائلي مَليء بالعلم والعلماء كما أسلفنا، عاش طفولته في كنف والده العالم الشهير أبي عبد الله أحمد بن محمد (1179-1118ه/1706-1765م)، الذي كان مشاركاً نَسّابة مؤرخاً مُطّلِعاً بَحّاثَة، عالماً بالحِساب والفرائض، يُحْسِنُ التوثيق عالماً بالّنوازل ومطالعة الرسوم. وكان خطيباً وإماماً بمسجد الأندلس بفاس، كما وُلّيَ الشهادة على الأوقاف في القبض والصرف، فاعْتَنَى بها وأحسن السياسة فيها. وله مؤلفات كثيرة في أشراف المغرب؛ فَلَهُ المورد الهَني بأخبار مولاي عبد السّلام القادري الحسني، وتأليف في أعيان المدرسين الذين أَلّفُوا والذين لم يُؤَلِّفوا، وله شرح على دُرّة التّيجان لم يَكمل، إلى غير ذلك من التآليف التي لا يسع المجال هنا لذكرها. ولما تُوفّي والد مترجمنا أبو عبد الله دُفِنَ بزاوية والد جده العالم الأكبر أستاذ الأستاذين وعماد الدين تاج العارفين كما يُسَمّى، الذي عَنْهُ أخذ أبو العباس ووالده وجَدّه كُنيتهم، الشيخ عبد القادر الفاسي (1007-1091ه/1598-1680م)، الذي كانت زاويته بِحَي القلقليين في مدينة فاس المحروسة (مجموعة مؤلفين، موسوعة، 1636/4، 2226/6، 2384/7).

وإلى جانب والده كان أبو العباس يحضر المجالس العلمية لأهله وأقاربه من العلماء والمتفقهين من أصحاب المؤلفات أبناء البيت الفاسي؛ كَعَمّه أخ أبيه المعروف بأبي مدين الفاسي (ت: سنة 1181-1182ه/1767-1768م)[1]، وأبي حفص عمر بن عبد الله الفاسي (ت: سنة 1188ه/1774م)[2]، ومحمد بن عبد السّلام الفاسي (ت: سنة 1214ه/1799م)[3] وغيرهم، وذلك بجامعة القرويين المعروفة بمدينة فاس حفظها الله (الأخضر، التّاودي بن سُودة، ص173).

ولما بلغ أبو العباس من العمر الخامسة والأربعين وتحديداً في سنة 1211ه/1796م، شَدّ الرّحَال حَاجّاً إلى مَكّة المكرمة في رحلةٍ مَرّ في طريقه فيها بالجزائر وتونس وليبيا ومصر، ثم رجع إلى المغرب في السنة التالية (1212ه/1797م) بعد أنْ زَارَ الحرمين الشّريفين وسائر الأماكن المقدسة.

ولم تطل حياة ابن عبد القادر بعد عودته من رحلته الحجازية، فبعد حوالي سنة وافته المنية هو وأخوه[4] في مدينة فاس مسقط رأسهم، بسبب الوباء المنتشر آنذاك بالمغرب سنة 1213ه/1798م (الأخضر، التّاودي بن سُودة، ص173).

ومن خلال بحثنا عن ترجمة لابن عبد القادر من هنا وهناك، لم نعثر له على مؤلفات موجودة أو إشارات تُفيد بأنّ له كُتُباً أخرى عدا رحلته هذه، وإنْ كنا قد التمسنا من خلال أُسلوب كتابته لها وطريقة تنظيمه لأفكاره وتبويبه وتنسيقه، بالإضافة إلى ما فيها من أمور علمية وفقهية أوردها ابن عبد القادر من ضمن المخطوط، تفيد بأنه كان له بَاعٌ في العلم والفقه والكتابة والتدوين، لذلك لا نستبعد أنْ تكون له مؤلفات أخرى إسْوَة بوالده وأعمامه وأجداده وأبناء عمومته من الأسرة الفَاسيّة الذين أَثْروا المكتبة المغربية بمؤلفاتهم. وإنْ صَحّ ذلك فهي إمّا مفقودة أو لازالت مخطوطةً تقبع في الخزائن والمكتبات تنتظر من يخرجها إلى النور، والله أعلم.

2. التعريف بالرّحلة والمَخطوط:

سبق أنْ ذكرنا أنّ ابن عبد القادر قُبَيل وفاته رَحِلَ إلى الحجاز طالباً فيها بيت الله الحرام لأداء فريضة الحَجّ، وفي طريق سَيرِهِ هو وركبه كانوا قد عبروا أراضي الجزائر وتونس وليبيا ومصر إلى أنْ وصلوا إلى مكة المكرمة شَرّفَها الله، وبعد أنْ أَتَمّوا فُروض الحَجّ كَرّوا عائدين من الطريق نفسها. وقد ذكر ابن عبد القادر تاريخ بدء رحلته الحجازية وخروجه مع الركب من مدينة فاس، كانت بعد صلاة ظهر يوم الخميس، الرابع عشر من جمادى الثانية عام أحد عشر ومائتين اثنتين وألف، الموافق اليوم الرابع من دجنبر العجمي (14 جمادى الثانية 1211ه/4 ديسمبر 1796م) (ابن عبد القادر، رحلة، ورقة 2 ظ). كما ذكر تاريخ عودته في العام التالي ووصوله مع الركب إلى وادي سبو المحيط بمدينة فاس، في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة، الموافق اليوم الأخير من شهر أبريل العجمي. حيث بات مع ركبه هناك، وفي اليوم التالي تَوَجَّهَ لدارهِ سالماً مُعَافىً (26 من ذي القعدة 1211ه/1 مايو 1797م). (ابن عبد القادر، رحلة، ورقة 163 ظ - 164 و).

وإذا حسبنا المُدّة التي قضاها ابن عبد القادر مسافراً غائباً عن موطنه لأداء فريضة الحج نجدها حوالي: ستة عشر شهراً وسِتّةً وعشرين يوماً بالتّمام. لم يفتْ فيها ابن عبد القادر تدوين مشاهداته ومعايناته في البلدان

[1] ينظر ترجمته في: (مجموعة مؤلفين، موسوعة، 2293/6-2244، 2392/7. والأخضر، أبو مدين الفاسي، ص161-163).
[2] ينظر ترجمته في: (الحُضَيْكِي، طبقات، ص523-524).
[3] ينظر ترجمته في: (مجموعة مؤلفين، موسوعة، 2468/8. والكتاني، فهرس الفهارس، 848/2-850).
[4] أشار ابن عبد القادر إلى أخيه هذا في رحلته، ووصفه بقوله: "شقيق نفسي". (ابن عبد القادر، رحلة، ورقة 162 ظ).

التي عبرها سواء في طريق ذهابه وعودته وظعنه ونزوله في السّفر، أو في أثناء مُكُوثه في المحطات والمدن للراحة والتزود، أو من خلال إقامته في الأراضي المقدسة لأداء أركان الحج.

ورحلة ابن عبد القادر هذه وكل مشاهداته وانطباعاته فيها دَوّنَها ودَبّجَها في كتابٍ لا يزال مخطوطاً -على حسب علمنا-لم يُحَقّق ولم تُنْشَر مَادّته بعد. وقد ذكر الأستاذ محمد الفاسي (1908-1991م) عميد الجامعة المغربية رحمة الله عليه، بأنه توجد نسخة من مخطوط الرحلة في عِدّة مكاتب بالمغرب –ولَكِنّه لم يذكرها- وبخزانة البلدية بالإسكندرية، وبخزانة أحمد تيمور باشا رَحِمَهُ الله (1871-1930م). (الفاسي، الرّحّالة، ص24). كما ذكر الدكتور عبد الهادي التازي (1921-2015م)، أنّه وقف على نسخة منها عند مالكها زميله الراحل الأستاذ محمد العابد الفاسي (1922-1975م)، وأنّه قد سَمِعَ بعد فترة أنها ضاعت. وأضاف بأنه توجد منها مقتطفات قليلة بخط محمد ابن عبد الله المراكشي بِكُنّاشَةٍ بالخزانة العامة رقم (88) من صفحة 164 إلى 181. (التازي، مكة، 409/1).

ومهما يكن من أمر نُسَخِ هذا المخطوط، فإنّ الذي وقفنا عليه منها تلك النسخة التي كانت بخزانة بلدية الإسكندرية، المحفوظة حالياً في مكتبة الإسكندرية، تحت رقم حفظٍ: (3578/ج جغرافيا). وهي بخطٍّ مَغْربيٍّ قديمٍ.

كما وجدنا نسخة مصورة من الرحلة بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، تحت رقم حفظ (1054 جغرافيا)، وميكروفيلم (48116). ومن الممكن أنْ تكون هي النسخة نفسها التي كانت في مكتبة أحمد تيمور باشا، ولاسيّما إذا عرفنا أنّ مكتبته (الخزانة التيموريّة) قد أُهْدِيَت إلى دار الكتب المِصريّة بعد وفاته (الزّرِكْلي، الأعلام، 100/1). وهي بخطٍّ مَشرقيٍّ مقروء منقولة عن نسخة للمخطوط بخط مغربي كما أشار الناسخ لها، وليس من المستبعد أنْ تكون منقولة من النسخة التي كانت بخزانة بلدية الإسكندرية التي أشرنا إليها سالفاً.

وهذه النسخة المَشرقيّة هي التي اعتمدنا عليها في مقالنا هذا، وذلك لأنها أوضح خَطّاً وأسهل قراءةً وأفضل تصويراً من النسخة المغربية، التي بسبب سوء تصويرها أصبح من الصّعب قراءة أواخر الكلمات في جميع الأسطر في ورقة الوجه، التي تداخلت مع أوائل الكلمات لجميع الأسطر في ورقة الظهر، ولاسيما في الجزئيات التي تخص ليبيا، مما يجعل النص فيها مبتوراً مُشَوّه الكلمات صَعب الفهم.

وقد احتوت نسختنا المَشرقية على 164 لوحة بما فيها لوحة العنوان، الذي جاء تحت اسم: **"رحلة ابن عبد القادر الفاسي من مدينة فاس"**. وفي كل لوحة تقع صفحتان، تحتوي كل منهما على خمسة عشر سطراً بخط الرقعة العربي. وقد شغلت المادة التي تتعلق بليبيا اللوحات من 21 إلى 42 في طريق الذهاب، ومن 129 إلى 150 في طريق العودة، مع ما تَخَلَّلَتْهُ هذه اللّوحات من حديثٍ لا يَمُتُّ لليبيا أو للرحلة بشأن، إنما لطائف علمية وفوائد فِقْهِيّة يسردها المؤلف، كعادة الرحالة المغاربة منذ زمن العَيّاشي في تطعيم رحلاتهم بنصوصٍ من العلوم الشرعية والمسائل الفقهية.

وهكذا من خلال اللّوحات سالفة الذكر استقينا مادة مقالنا هذا الذي عَنْوَنّاهُ بـ: **جُغرافية ليبيا وعُمرانها من خلال مخطوط الرِّحْلَة الحِجَازيّة لابن عبد القادر الفاسي 1211-1212ه/1796-1797م.**

ثانياً: جُغرافية ليبيا من خلال مخطوط الرِّحْلَة الحِجَازيّة:

1. الاهتمام بِمَصَادر المياه:

كعادة الرّحّالة والحُجّاج المغاربة منذ بدء رحلاتهم وانطلاقهم من بلدانهم ومدنهم وطوال طريقهم الممتدة إلى بلاد الحجاز نجدهم يُدَوّنُون ما يُشَاهدونه من المظاهر الحضارية المختلفة في الأقاليم والبلدان والمدن التي يَمرون بها وينزلون في بعضها، فيجمعون في تلك المدونات الكثير من الفوائد المتنوعة، التي منها اهتمامهم باستعراض الأقاليم والبلدان والمدن والقرى والبقاع المختلفة التي ينزلون بها وتحديد أماكنها ووصف ما أمكنهم من معالمها ومما شاهدوه فيها.

وفي الحقيقة لم يشذ ابن عبد القادر عَمّن سَبقوه في هذا، وإن كان أول ما لاحظناه في رحلته بمجرد قراءتنا لها هو اهتمامه الشديد بمواطن المياه في طريق قافلته، وتوضيح وضع ركبه من حيث حصولهم على الماء من عَدَمِهِ في البقاع والأماكن التي اتخذوها محطات في طريقهم للراحة والنزول، مع حرصه على ذكر أسماء عيون المياه وآبارها ومعاطنها وغُدرانها التي مَرّ بها الركب سواء عند الذهاب أو الإيّاب، حيث أَوْلَى ذلك النوع من الجغرافيا جُلّ اهتمامه، وشغل جزءاً كبيراً من مخطوط رحلته، فنجده يذكرها بحرصٍ غريبٍ يدعو للدهشة وفي الوقت نفسه للاحترام، فَكَأَنّ بالماء شغله الشاغل في رحلته وهَمّه الظاهر طوالها، فَمِمّا أورده في ذلك على سبيل المثال قوله:

"ومن الغد رحلنا عند الشروق وبِتْنَا بطرف المخاضة على مسيرة خمس ساعات إلا ثلث الساعة على غير ماء. ومن الغد رحلنا عند الشروق وبِتْنَا على مسيرة خمس ساعات إلا ربع الساعة على غير ماء. ومن الغد وهو يوم الخميس التاسع والعشرون من رجب -على حسابنا- رحلنا قرب الشروق وبِتْنَا على مسيرة خمس ساعات قرب العُرَيْعِر بعد أنْ سَقَى الركب الماء من السميدة ومن غيرها". (ابن عبد القادر، رحلة، ورقة 136 و).

وكذلك قوله: **"ومن الغد رحلنا بعد الشروق ونزلنا بعد العشاء الأخيرة على مسيرة تسع ساعات ونصف الساعة بعد أنْ مَرَرْنَا بغدير ماء وقت الظهر على مسيرة أربع ساعات غير ثلث الساعة، وهو كبيرٌ جداً منحوت في حجارة وَسِعَ الركب كله وفضل منه ما يكفي أكثر منه، ويُقال له: غدير التّراب لاتّصال تُراب كثير به مدفون فيه مقابر"**. (ابن عبد القادر، ورقة 41 و- ظ).

وأيضاً قوله: **"ومن الغد وهو يوم السبت السادس والعشرون من رمضان رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بعد العشاء على مسيرة تسع ساعات بعد أنْ سَقَى الناس الماء من العين المرة عند الغروب... ومن الغد رحلنا عند طلوع الشمس ونزلنا قبل العصر على مسيرة خمس ساعات وربع الساعة، وسَقَى بعض الركب الماء من مَعطن الجرد على ساحل البحر... ومن الغد رحلنا بعد طلوع الشمس ونزلنا قبل الغروب على مسيرة ست ساعات بعد أنْ مَرّ الركب بماءٍ كثيرٍ بمواجن منحوتة في حجارة"**. (ابن عبد القادر، ورقة 36 و- ظ).

ولاهتمام ابن عبد القادر بتعريفنا بأماكن المياه في طريقه عبر ليبيا نجده يحرص أيضاً على ذكر أسماء الآبار والمعاطن التي لم ينزل بها ركبه ويعرفنا بها بمجرد مجاورة الركب لها في الطريق، ويبدو أنها كانت معروفة له ولغيره من المسافرين المارّين بأرضِ ليبيا -من الحُجّاج والتُّجّار وغيرهم- بواسطة من سبقوهم من الرّحّالة الذين دَوّنُوا خبراتهم عن البلاد وكتبوها لمن يَجيئها من بعدهم. ومن أشهر هؤلاء الرحالة أبو سالم العَيّاشي (ت: سنة 1090ه/1679م)، صاحب الرِّحْلة العَيّاشيّة المعروفة بماء الموائد[1]، التي تَأَثّر بها الكثير من

[1] طُبِعَتْ الرحلة العَيّاشيّة على الحجر في جزأين سنة 1316ه/1898م، وأُعِيدَ طبعها بالرباط سنة 1977م، كما طبعتها دار السويدي

الحُجّاج المغاربة من أصحاب الرحلات واستفادوا منها وأخذوا عنها الكثير من النّصوص، وكان ابن عبد القادر منهم، حيث نجده قد استشهد في مخطوطه الذي بين أيدينا بالعديد من نصوصها سواء المقتبسة مباشرة دون تصريف أو الأخرى المأخوذة بالمعنى.

وعلى ما يكن، وللفائدة سنذكر بعض أسماء آبار المياه ومعاطنه في أرض ليبيا التي ذكرها ابن عبد القادر ولم يمر عليها ركبه أو ينزل بها لأسبابٍ ذكرها بعينها، فمن أقواله في هذا:

"ولم نَمر على مَعطن الحُمَيْمَة استغناءً عنه بماء المطر... ولم نمر على مَعطن البندار لمحيده عن الطريق". (ابن عبد القادر، ورقة 128 ظ). **"وبِتْنَا على مَعطن الجرجوب ولم نرده استغناءً عنه ولمحيده عن الطريق... ولم نمر على مَعطن المغرب لِمَحِيدِهِ عن الطريق ولِبُعْدِهِ عنها استغناء بماء المطر".** (ابن عبد القادر، ورقة 129 و). **"ولم نرد بئر الفرس المتقدم ذكرها لمحيدها عن الطريق".** (ابن عبد القادر، ورقة 130 و). **"ولم ندخل لمَعطن الزّعفراني لِمَحِيده عن متن الطريق، ولم نرد البشيطية بل بَقَيَا معاً عن يميننا وإنما وردنا غدير ماء مطر".** (ابن عبد القادر، ورقة 135 ظ). **"ومن الغد رحلنا بعد الشروق ومَرَرْنَا على مَعطن سريغي أول النهار، ولم ننزله استغناءً عنه بماء المناعل وبِتْنَا على مسيرة أربع ساعات".** (ابن عبد القادر، ورقة 134 و).

ولم يَنْسَ ابن عبد القادر ذكر ملاحظاته على مياه تلك العُيون والآبار والمَعَاطن التي نزل بها ركبه أو لم ينزل بها، وتقويمها من حيث نظافتها ومستوى نَقَاوتها وعُذوبة مياهها، فنجده يُدْرِجُهَا تحت عدة تصنيفات واضحة ومفيدة، فمثلاً نجده يصف ماء آبار ابن كروان بأنه **"غير عذب مغير اللّون".** (ابن عبد القادر، ورقة 150 ظ). وماء مَعطن الحَدّاديّة بـ**"غير عذب".** (ابن عبد القادر، ورقة 36 و). أما العين المرة فـ **"ماؤها عذب"**، هي **"ومَعطن النُّخَيّل آبار منحوتة في حجر ماؤها عذب".** (ابن عبد القادر، ورقة 36 و، 39 ظ). وكذلك مَعطن حمام **"وهو بئر منحوتة في حجر ماؤها عذب".** (ابن عبد القادر، ورقة 39 ظ). أمّا آبار عفونة فَيَنْبَعُ منها **"ماءٌ عذبٌ جداً".** (ابن عبد القادر، ورقة 43 و). بالإضافة إلى آبار الزعفران التي **"ماؤها عَذبٌ زُلالٌ".** (ابن عبد القادر، ورقة 35 ظ). ومَعطن النّعيم الذي ينبع منه **"ماءٌ أبيضُ مثل اللّبن وفي غاية العُذُوبة".** (ابن عبد القادر، ورقة 35 ظ).

وفي الوقت نفسه أعلمنا ابن عبد القادر بنقيضها في النّقَاوة من ذاتِ الملوحة، وأفادنا بمعلومات عن صلاحيتها للشرب من عدمه، التي منها: **"الشماس والفوار مَعطنان على ساحل البحر منحوتان في حجارة ماؤها يميل إلى الملوحة". و"المناعل -بِلَام آخرة ربما أُبْدِلَتْ ميماً- آبار على شاطئ البحر ماؤها ملح".** (ابن عبد القادر، ورقة 41 ظ). وكذلك **"مطراون بئر منحوتة في حجارة ماؤها ملح".** (ابن عبد القادر، ورقة 135 ظ). **"وفرفر... آبار قليلة الماء على ساحل البحر يحفرها خدمة الركب في رملٍ فَيَنبع منها مَاءٌ ملح".** (ابن عبد القادر، ورقة 41 ظ). بالإضافة إلى **"الشمام مَعطن يُحفر بساحل البحر، ماؤه ملح كريه الرائحة".** (ابن عبد القادر، ورقة 42 ظ).

ومن أسوأ عُيُون المياه التي ذكرها ابن عبد القادر في أرض ليبيا، وسَقَى ركبه منها في طريق ذهابه، هو ماء الشَّقَّة، فهو: **"قَبيح آجِنٌ ذو حَمِئَة، ومن أمثال الحُجّاج: مائة دَقَّة ولا شَرْبَة من الشَّقَّة"[1].** (ابن عبد القادر، ورقة 36 و). وكذلك الهِيشَة[2] التي **"مَاؤها ملح أُجَاج لا يكاد يُسَاغ يُضرَبُ به المثل في القُبْحِ، وليس في مياه**

بأبي ظبي سنة 2006م في جزأين، طبعة عصرية مُحَقّقَة ومُبَوّبَة ومُزدانة بالفهارس المتعددة.

[1] مَعنى هذا المثل: أنْ تتعرض لمائة ضربة أهون عليك من الشرب من ماء الشَّقَّة. وهو مثل مُعَبّر عن مدى سوء هذا الماء وانزعاج الحُجّاج من الشّرب منه.

[2] الهِيشَة: بلد تتصل بتاورغاء من الجنوب إلى الغرب بقليل، وبها مستنقعات كثيرة وملح، ونخل كثير. وبها عيون صغيرة تَمدّ هذه المستنقعات، وبها روضة سيدي ناصر جَدّ العبادلة والزاوية سكان مرادة. (الزّاوي، معجم، ص334).

برقة أقبح منه إلا مواضع قليلة لا يعتمدها الحاج، مع أنّ هذا أيضاً لا يُسْتَقَى منه إلا من اضطّره العطش أو كانت أيام الحر، وهو ماءٌ راكضٌ في مواضع كثيرة يحيط به القصب وبعضه أشد قبحاً من بعض". (ابن عبد القادر، ورقة 35 و).

2. الاهتمام بتحديد الأماكن وحساب المسافات:

نلاحظ أيضاً على ما ذكرناه أعلاه، أنّ ابن عبد القادر إلى جانب اهتمامه الشديد بمصادر المياه ومواطنها، نجده يحرص أشد الحرص على تحديد الأماكن والبِقَاع والمواطن التي نزلت بها قافلته في أثناء عُبُورها لليبيا، وإيراد المسافات التي بينها وحسابها بساعات السّفر بِدِقّةٍ عجيبة، جعلته لا يُسْقِطُ من حِسَاباته الربع والثلث والنصف ساعة بجوار الساعات، فَمِنْ ذلك مما نُضيفه هنا ونقتبسه من رحلته عند الذهاب قوله:

"وكان ارتحالنا من محروسة طرابلس يوم الثلاثاء ثامن رمضان المذكور بعد مُضِيّ ثلاث ساعات من الزوال من اليوم المذكور... ومن الغد رحلنا من تاجورة {تاجوراء} وصَلَّيْنَا الظهر بسيدي أبي النور، والعصر بوادي المسير على مسيرة خمس ساعات وبِتْنَا هنالك. ومن الغد بِتْنَا بسيدي عبد العاطي على مسيرة خمس ساعات وثلث". (ابن عبد القادر، ورقة 24 و).

وكذلك قوله: **"... ودخلنا عند الشروق ونزلنا قبل العشاء على مسيرة ثمانِيَ ساعات وربع الساعة بعد أنْ وَصَلْنَا قُصَيبة وادي أمالوس ويقال له سامالوس بعد العصر على مسيرة سبع ساعات وربع الساعة...".** (ابن عبد القادر، ورقة 39 و).

وأيضاً: **"ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بعد العصر بالطّرانة على مسيرة خمس ساعات. ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بعد العصر قرب مَعطن عفونة على مسيرة خمس ساعات إلّا ربعاً. ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح ونزلنا بمَعطن عفونة في الضحى على مسيرة ساعتين إلا ربعاً، وأقمنا هنالك بقية يومنا. ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبِتْنَا على مسيرة خمس ساعات. ومن الغد رحلنا عند الفجر وبِتْنَا قبل خشم العيش على مسيرة خمس ساعات وربع الساعة".** (ابن عبد القادر، ورقة 127 ظ- 128 و).

ولِدِقّة ابن عبد القادر في إيراد المسافات من مكان إلى آخر وحسابها بالسّاعات وأجزاء الساعة كما أسلفنا الذكر، وحرصه على تدوينها في مخطوطه -وذلك على حسب المحطات التي نزلها مع الركب في مسار رحلته- كل ذلك جعله يتمكن من حساب ساعات السفر كاملةً بين الحواضر والمدن المشهورة، فنجده مثلاً يُحَدّد المسافة بين مدينة طرابلس ومدينة بنغازي في رحلة الذهاب بقوله:

"... فَوَصَلْنَا لابن غازي من طرابلس على مسيرة مائة ساعة وأربعين ساعة غير كسر". (ابن عبد القادر، ورقة 37 و).

وفي المقابل أورد المسافة بينهما في رحلة العودة بالمراحل[1] وهي كما ذكر: **"فَجُمَلة ما بين ابن غازي ومحروسة طرابلس خمس وثلاثون مرحلة"[2].** (ابن عبد القادر، ورقة 137 و).

[1] المراحل: جمع مرحلة، وهي مِعيَارٌ لحساب مسافات سفر القوافل بَرّاً، ويختلف طولها ومقدارها على حسب طبيعة الأرض، فهي في الطرق الصحراوية تساوي ما بين ثلاثين وخمسة وثلاثين كيلو متراً، وربما طالت إلى ستين كيلو متراً في الأصقاع عديمة الماء، أو التي بها لُصُوص وقُطّاع طُرُق. (رأفت بك، التبيان، 490/1).

[2] يقول الحشائشي (1912-1855م) الذي قام برحلته إلى ليبيا بعد رحلة ابن عبد القادر بحوالي قرنٌ من الزمان: "إن بين طرابلس وبنغازي ما يقرب من ثلاثين مرحلة أو أزيد من ذلك وجميعها تقرب من البحر. (الحشائشي، رحلة، ص188).

كذلك المسافة ما بين بنغازي والقاهرة بما حَدّدَها بالسّاعات: **"فَجُمْلَة ما بين مدينة ابن غازي وقاهرة مصر مائة ساعة وخمس وثمانون ساعة غير كسر، قطعنا ذلك في أربعة وأربعين يوماً ما بين أيّامَي السّفر والقِيَام"**. (ابن عبد القادر، ورقة 43 و).

في حين نجده يُورِدُ المسافة بينهما في إيّابه بالمراحل فَيَذكر: **"... فَجُمْلَة ما سرنا من المراحل من قاهرة مصر إلى ابن غازي اثنتان وأربعون مرحلة"**. (ابن عبد القادر، ورقة 131 و).

أما المسافة ما بين قاهرة مصر وطرابلس ليبيا فقد حسبها بعد عودته بالمراحل، وهي كما ذكرها:

"وجُمْلَة ما بين قاهرة مصر ومحروسة طرابلس سبع وسبعون مرحلة بموحدة فيهما". (ابن عبد القادر، ورقة 137 و).

ولا نَنْسَى أنْ نذكر أنّ حرص ابن عبد القادر الشّديد ودِقّته وأمانته في حِسابه للمسافات بالسّاعات والمراحل وغيرها، جعلته لا يَحْتَسِبُ المسافات التي خرجت فيها القافلة عن مسارها وضَلّ فيها الركب عن الجادة، فَنَجده في إحدى تلك المواقف يقول:

"ومن الغد رحلنا عند طلوع الفجر بعد صلاة الصبح ونزلنا على مَعطن جردسن قبل الغروب على مسيرة سبع ساعات، لكن لا يُعْتَدّ بالسّيْر في هذا اليوم لكونِ الدّال[1] ضَلّ عن الطريق صباحاً وغاب عن الركب يطلب الطريق...". (ابن عبد القادر، ورقة 38 ظ).

ومن المُستحب أنْ نُضيف في هذا المقام أنّ ابن عبد القادر عَقَب مُرُوره بأرض برقة من ليبيا استشهد بالتّقسيم الجُغرافي الذي أورده العياشي عنها في رحلته -(العيّاشي، الرحلة، 1/206-207)- والذي تناقله عنه من جاءها بعده من الرّحّالة والجغرافيين، وأغلبهم كانوا من الحُجّاج المغاربة من أصحاب الرحلات، الذين دَوّنُوهُ في كُتُبِهِم[2]، ومن ضمنهم صاحب رحلتنا هذه، الذي لم يُفَوّت نَصيبه في نقله، وهو كالآتي:

"أرض برقة مُنقسمة في عُرف أهلها على أقسامٍ: أولها من حَسّان إلى ما وراء الأحمر بِيَومين يُسَمّى سرت، ومن هناك إلى قرب المنعم يُسَمّى برقة البيضاء، ومن هناك إلى سُلُوق يُسَمّى برقة الحمراء، ومنه إلى التّميمي يُسَمّى الجبل الأخضر، ومنه إلى العَقَبَة الكبيرة يُسَمّى الْبُطْنَان، ومن العَقَبَة الكبرى إلى الصغرى يُسَمّى بين العِقَاب، ومن العَقَبَة الصغرى إلى الإسكندرية يُسَمّى العَقَبَة الصغرى، انتهى". (ابن عبد القادر، ورقة 43 ظ).

وفي ختام هذه الجزئية واستناداً على ما سبق، نجد فيما أورده ابن عبد القادر بخصوص مواطن المياه في أرض ليبيا والمسافات التي بين الأماكن والبِقَاع التي نزل بها وحسابها بالساعات أو الأيام أو المراحل إلى غيرها من المعلومات في هذا الخصوص، نجد فيه الكثير من الفائدة لمن يأتي بعده من المسافرين في قوافل التجار والحُجّاج وغيرهم من الذين يمرون في سَفَرِهِم بالبلاد الليبية، فَتَكُون تلك المعلومات والخبرات -إذا اطّلعوا عليها- أنيساً لهم في طريقهم، ونِبراساً يهتدون به في سَيْرِهم، ففيها من الفائدة ما تكفيهم أخطار السّفر، وتُعينُهُم على تجنب متاعبه ومشاقه، ولاسيما في المناطق الواسعة الخالية التي تتسم بالصحراوية، فالتّيْه في تلك القِفَار قد يعني الموت، وفي رحلة ابن عبد القادر من الجغرافية ما تَقِيهِم ذلك المصير، من حيث اختيار الطريق المناسبة الآمنة، الموصلة المختصرة، وفي المقابل الابتعاد عن أماكن الجدب والجفاف، والحذر من

[1] أي دليل الطريق الذي يتبعونه في سفرهم، فهو متخصص في معرفة الطريق باستخدام النجوم وغيرها، ولديه القدرة على تتبع آثار القوافل السابقة بما لديه من خبرة إلى جانب ملكات فطرية لا تتوافر لدى المسافر العادي.

[2] منهم على سبيل المثال: (ابن ناصر الدرعي، الرحلة، 2011). وكذلك: (ابن الطَّيِّب الشّرقيّ الفاسيّ، الرحلة، مخطوط).

الوقوع في العطش بارتياد عُيُون المياه المَطروقة، واختيار الآبار والمعاطن المعروفة بصلاحية مياهها للمسافر والدّابة، إلى آخر تلك الأمور التي ازدانت بها رحلة ابن عبد القادر وتَشَبّعَت.

ثالثاً: عُمْرَان ليبيا من خلال مخطوط الرِّحْلَة الحِجَازيّة:

1. وصف المُدُن والتَّجَمّعَات البَشَريّة:

بخلاف اهتمامه بمواطن المياه وأماكن وجودها، وحسابه مسافات الطريق على أرض ليبيا بالمراحل والساعات كما أسلفنا الذكر، نجد ابن عبد القادر على النقيض فيما يخص انطباعاته عن المدن الليبية من حيث عُمْرَانها الحضري ووصف معالمها وتِبيان منشآتها ومِعمارها، فَمُدَوّناته في هذا الخُصُوص -والحق يقال- جاءت مقتضبة في غالبها، ومن الممكن أن نلتمس له بعض العذر فيما يخص المُدُن الليبية التي لم يزرها إطلاقاً ومَرّ بجانبها فقط في ذهابه وإيابه، أو الأخرى التي نزل بها للراحة السريعة ولم يمكث فيها طويلاً حتى يَتَشَبّع من رؤيتها، ولَكِنْ نأخذ عليه عدم الإسهاب في وصف المدن التي أقام فيها لِعِدّة أيام للراحة والتزود بالمؤن ولوازم السفر.

منها مدينة طرابلس التي نزل بها مَرّتين في ذهابه وفي إيّابه، أقام في الأولى حوالي أسبوع، وفي الثانية قرابة الشهر[1]. والحال نفسه في مدينة ابن غازي (بنغازي) التي نزل فيها لمُدّة يوم في ذهابه، وفي طريق إيّابه مَكَثَ فيها لمدة أسبوع، فَفِي كِلْتَيْهِمَا الفترة التي قضاها كانت كافية لمشاهداته وتسمح له بالإسهاب في الحديث عن عُمْرَانها ووصف مدينتها وتخطيطها ومنشآتها ومعمارها...إلخ، هذا في حال رغب في ذلك، ولكن مادته عنها في هذا الخصوص -باستثناء طرابلس نوعاً ما- جاءت غير مُرضية، لذلك نجده في مخطوطه يُعَوّض النقص في مُدَوّناته بالاستعانة بما ذكره أبي سالم العياشي فيها، وهو غالباً أغزر وصفاً من مادته.

وسَنُحَاول هنا التّعريف بالمدن والتّجمعات البشرية التي مَرّ بها ابن عبد القادر في ليبيا مع ذكر ما أورده عن بعضها من توصيف مِعْمَاريّ مقتضب في مجمله، إضافةً على ما زاده واقتبسه من وصف العياشي لها، في محاولة لمحاكاة صورتها التي رغب ابن القادر في إيصالها لنا من خلال مخطوطه. وهي على النحو الآتي:

أ- مدينة طرابلس:

مدينة طرابلس، حاضرة إقليم طرابلس الغرب وعاصمة دولة ليبيا الحديثة والمعاصرة، يصفها ابن عبد القادر بقوله:

"وطرابلس لها بابان؛ باب للبر وباب للبحر، لأنّ البحر مُحيطٌ بكثير من جهاتها وبها موضع مُتّصل بالمدينة من جهة البَرّ وهو مستقر الأمير الذي يكون بها يقال له الحصار". (ابن عبد القادر، ورقة 22 ظ).

ويزيد ابن عبد القادر في وصفها بذكره: **"وهذه المدينة في نفسها هي كما وصفها أبو سالم في رحلته {(الرحلة، مج135/1)} بقوله: مساحتها صغيرة، وخيراتها كثيرة، ونكايتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة ومعايبها قليلة، أنيقة البناء، فسيحة الفناء عالية الأسوار، متناسبة الأدوار واسعة طرقها سهل طروقها...".** (ابن عبد القادر، ورقة 22 ظ- 23 و).

ويُضيف ابن عبد القادر ويصف لنا إحدى ضواحي مدينة طرابلس -خارجة عنها في ذلك الوقت- وهي كما يُسَمّيها الحُجّاج **"الزّرارية"**، التي يعرفها أهل طرابلس باسم **"الظّهرة"**[2]. وكانت أركاب الحُجّاج المغاربة

[1] الحق يقال كتب لنا ابن عبد القادر عن الناحية العلمية في طرابلس معلومات جديدة وفي الوقت نفسه مفيدة، امتاز بها عن غيره من الرحالة، وسنكتب عنها مقالا علمياً إن شاء الله إذا رُزِقْنَا الوقت والهِمّة.

[2] وفي ذلك يقول: الرحالة الزبادي الفاسي المنالي (ت: سنة 1209ه/1794م): "وكان تُزُولنا حيث ينزل ركب الحاج في هذه الأزمنة، وذلك في دُورٍ مجتمعة خارج البلدة، فيها يمر الحاج في وسطها، وهي كثيرة وفيها متاجر وأسواق، وتقام بها الجمعة، وأهل البلد يُسَمّونها الظّهرة من الظّهُور

دائماً ما تَنْزِلُ بها عند إقامتها بطرابلس، للراحة والاستعداد لبقية الطريق إلى الحَج، بالتّزَوّد بالمؤن ولوازم السفر المختلفة، ومن تلك الأركاب كان الركب الذي يستقله ابن عبد القادر الفاسي، الذي نتركه يصف لنا الزّرارية ونُزُولهم فيها بقوله:

"... فَلَمّا وصلنا لأقواس الزّرارية جعلت المدافع تخرج من أبراج البلد، ونزل الركب بالزّرارية؛ وهي بلدة مقابلة لمحروسة طرابلس، خارجة عن سورها وهي مضافة إليها، ينزل بها الحاج ولا ينزل بمتاعه بطرابلس للوظيف المخزني الذي على ذلك، بل ينزل الركب بالزّرارية بمتاعه يَكْتَري[1] الحُجّاج بها الدّور، ويجعلون بها أمتعتهم ودوابهم وتخرج الإبل لمحل رعيها فلا ترجع إلا عند إرادّة السفر، والحُجّاج يدخلون طرابلس لقضاء أغراضهم ويَبيتون بالزّرارية مع أمتعتهم. والزّرارية الآن في غاية الخَراب لم يَبْقَ بها إلا القليل من الدّور". (ابن عبد القادر، ورقة 22 ظ).

وإلى جانب حَي الزّرارية يُتْحِفُنا ابن عبد القادر بالتّنويه بِأَحد أبرز المنشآت المِعْمَاريّة لمدينة طرابلس في ذلك الوقت، وهو المسجد الذي بَنَاهُ واليها يوسف باشا القَرَمَانَلّي (1210-1246ه/1795-1830م) بجوار باب المدينة، حيث قال فيه:

و**"هو في غاية الإتْقَان بحيث لم يُرَ مثله".** (ابن عبد القادر، ورقة 22 و).

ويَزيد ابن عبد القادر ويَصِفَهُ لنا بعد أنْ صَلّى به الجمعة وأَمْعَنَ النظر فيه، فقال:

"وصَلّيْنَا الجمعة بمسجد الباشا المذكور، وهو له بلاطات خمسة في غاية الاتْقَان، وبدائرته من جهة صدره وما والاه سواري مُزَلّجة بالزّليج الرّومي، وكذلك حِيطَانه وبلاطاته بالسّواري من الرّخام، وهو مفروش بالتّسَاريح الصّطَنْبُوليّة[2]، وله مِنْبَرٌ من رخام ملون بالأبيض والأسود والأصفر في غاية[3] لم يُرَ مثله". (ابن عبد القادر، ورقة 23 ظ).

ويختتم ابن عبد القادر حديثه عن طرابلس واصفاً أحوالها إبّان نزوله فيها بقوله:

"وطرابلس الآن عند أهل النواحي في غاية الرخاء ... إلا أَنّه لم يَزل بها بعض الخَراب، فَإِلَى الآن لم يُعْتَنَ ببنائها وإصلاح ما تَهَدّم منها". (ابن عبد القادر، ورقة 144 ظ).

ويبدو أنّ هذا الخَراب الذي أشار إليه ابن عبد القادر في مدينة طرابلس وكذلك سابقاً في حَي الزّرارية، كان من جَرّاء الفِتَن التي حدثت في المدينة وما تَعَرّضَت له من نزاع وحصار وحروب قُبَيل مَجيء ابن عبد القادر لها بسنواتٍ بسيطة، التي كانت سبباً مباشراً في وصول يوسف باشا القَرَمَانَلّي لِسِدّة الحُكم[4].

ب- مدينة ابن غازي (بنغازي):

بنغازي عاصمة الشّرق اللّيبي وحاضرة إقليم برقة في العصر الحديث وأزهى مُدُنه وأكثرها حضارةً وتَمَدُّناً. جاء وصفها عند ابن عبد القادر شحيحاً مقتضباً على الرغم من نُزُوله فيها في طريق ذهابه وإيّابه، ولاسيّما في الإيّاب، حيث أطال الْمُقَام فيها لِمُدّة أسبوع كامل على حسب قوله:

لأنها ظاهرة، أي عارية من النّخيل بخلاف العمارات المتصلة بهذا البلد في كل جانب، فإنها كلها وسط النّخيل والحُجّاج يُسَمّونها الزّرارية باسم رملة متصلة بها، بينها وبين البلد يَعْمُرُ بها سُوقٌ عظيمة". (بلوغ المرام، ورقة 11 و).

والظّهرة: اسمٌ للمِنطقة التي تقع جنوبي الشّعاب بمدينة طرابلس. ولِعُلُوّها على مستوى أرض المدينة سُمّيَت الظّهرة، وهي من الظُّهُور ضد الخفاء. (الزّاوي، معجم، ص224).

[1] أي يَسْتَأْجِرُ.

[2] أي الإسطنبولية.

[3] أعتقد أنّ الجملة ناقصة كلمة، والسّياق الطبيعي للجملة هو: في غاية الجمال لم يرَ مثله.

[4] ذكر لنا ابن عبد القادر في مخطوط رحلته شيئاً عن هذه الفتن والحروب وما جرى فيها. (ابن عبد القادر، ورقة 141 ظ- 144 و).

"وأقمنا بابن غازي سبعة أيام لقضاء وطر الركب من شِراء المؤنة". (ابن عبد القادر، ورقة 131 ظ).

وفي رِحْلَتَي الذهاب والإيّاب وما فيهما من النّزول والإقامة، أقصى ما جاد به ابن عبد القادر في وصف مدينتها وعُمْرَانها قوله:

"وابن غازي مدينة ذات بِناءٍ مُتّسِعٍ غير مُتْقَن، وعليها مَرْسَى يُؤْتَى إليها من محروسة طرابلس ومن تونس ومن التّرك بالسّلع والفواكه، وأرضها أرض حراثة وماشية، وأهلها يميلون إلى البادية أكثر من الحضرة، وهي الآن في إيالة حاكم طرابلس". (ابن عبد القادر، ورقة 37 و).

ويُضيف ابن عبد القادر على هذا الوصف كما هو الحال عند طرابلس ما ذكره العَيّاشي فيها -(الرحلة، مج201/1)- وهو:

"مَرْسَى ابن غازي حسنة بسفح الجبل الأخضر، بينها وبين سُلُوك مسافة يوم، وفيها عَليل وعَسكر لصاحب طرابلس، وفي ذلك المرسى تَصُبُّ أودية السّمن والعَسل والشّحم والودي من الجبل الأخضر، الذي لا أخصب منه ولا أكثر إداماً فيما رأينا من البلاد، وتحمل كل ذلك السّفن إلى طرابلس وجِرْبَة وما بإزائهما من البلدان، ومن هذا الجبل غالب إدامهم ولحمانهم...". (ابن عبد القادر، ورقة 37 ظ).

ج- سرت:

سرت، أو أرض سرت، أو بلاد سرت، أو عَمَالة سرت، منطقة واسعة تقع في شمال ليبيا على البحر المتوسط، فيما يُعرف بالمنطقة الوسطى حسب التقسيم الجُغرافيّ الحالي لليبيا (المنطقة الشرقية والغربية والوسطى)، أي ما بين طرابلس وبرقة. وكلمة سرت تُطلق على كل المنطقة الواقعة بين قُصُور حَسّان[1] والْعُقَيْلة[2] (الزاوي، معجم، ص188). وهذه المنطقة أو الإقليم الواسع قد احتوى على العديد من الأراضي والأماكن والبِقاَع والقُصُور والعُيُون والآبار والمَعاطن المعروفة لدى الرّحّالة والجُغرافيين سواء في العصور القديمة أو الإسلامية، وقد ذكروها في كتبهم ورحلاتهم على عِدّة أسماء، وشَكّلت في مجموعها الإقليم الذي عُرِفَ باسم سرت نسبةً إلى مدينة سرت الإسلامية -المندثرة حالياً- على عادة المسلمين الأوائل بتسمية الإقليم باسم عاصمته، مثل برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومَرّاكش، فهي أسماء للعواصم وأسماء للأقاليم في الوقت نفسه. (شَلّوف، معجم، ص369-370).

وعلى ما يكون، فإنّ ابن عبد القادر من خلال رحلته كان قد عبر بأرض سرت -كما حَدّدْنَا جغرافيتها سابقاً- في ذهابه وإيّابه، وعَرّفنا بأسماء عدد من آبار المياه ومعاطنه الموجودة فيها، التي ذكرنا بعضها عند حديثنا عن جغرافية ليبيا، ولكن مُسَمّى سرت تحديداً لم يذكره ابن عبد القادر إلا في طريق عودته، عند قوله:

"ومن الغد رحلنا عند الفجر وبِتْنَا على مسيرة أربع ساعات بأرضِ سرت بعد أنْ خرجنا من برقة وقت الظهر". (ابن عبد القادر، ورقة 134).

ثم أضاف ابن عبد القادر: **"قال أبو سالم في رحلته {(الرحلة، مج196/1)}: وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد ذات مَزارع كثيرة بالبَعْلِ، وعربها أهل رفاهية إلا أنّ الجور أجلاهم من بلادهم وشَتَّتَ شملهم، إلاّ أنّ أمرهم كاد ينتظم في هذه الأواخر على يد أميرهم سيد روحه".** (ابن عبد القادر، ورقة 134 و-ظ).

[1] قُصُور حَسّان: هي قصور كان قد بناها القائد العربي حَسّان بن النّعمان (ت: حوالي سنة 87ه/705م)، إبّان فتحه لإفْريقيّة فَعُرِفَتْ به، وكانت تقع شمالي قصر سرت بنحو 70كم. (الزاوي، معجم، ص278-279). وسنتحدث عن هذه القُصُور في الصفحات القادمة.

[2] الْعُقَيْلة: منطقة صغيرة عل ساحل البحر المتوسط، تقع في الجنوب الغربي من مدينة بنغازي بنحو 285كم، وغربي مدينة أجدابية بنحو 100كم، وغربي البريقة بنحو 45كم. بها بئر تردها البادية لسقي حيواناتها. (الزاوي، معجم، ص228).

ثم أردفه بالمعلومة الوحيدة التي أعطاها لنا عن أحوالها وأحوال أهلها في زمن رحلته بقوله: **"وهم الآن في حُكْمِ يوسف صاحب ولاية طرابلس، فَبِلادُهُم بسببه بلاد هناء وعافية".** (ابن عبد القادر، ورقة 134 ظ).

د- الزُّوَارات:

"وبِتْنَا بالزُّوَارة العامرة بعد أنْ سَقَى الركب الماء من الزُّوارة الخالية". (ابن عبد القادر، ورقة 21 ظ- 22 و).

هذا ما ذكره ابن عبد القادر قُبَيل وصوله وركبه لمدينة طرابلس في طريق ذهابهم للحَجّ، وكذلك في طريق رجعتهم مَرّوا بهما أيّ الزُّوَارَتَيْنِ، حيث قال ابن عبد القادر فيهما:

"وبِتْنَا بعد الزُّوارات العامرة على مسيرة خمس ساعات وربع الساعة... ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصّبح وسَقَى الناس الماء ضُحَى من الزُّوارات الخالية". (نفسه، ورقة 150 و-ظ).

ويبدو أنّ ابن عبد القادر قد أخذ تسمية الزُّوَارَتَيْنِ بهذا الاسم: العامرة والخالية، من الرّحّالة الورثيلاني (ت: سنة 1194ه/1780م)، مُخَالفاً وإيّاه في ذلك من سَبَقُوهم من الرّحّالة. (الورثيلاني، الرحلة، مج165/1). فنجد مثلاً التّجاني (ت: بعد سنة 717ه/1317م) يذكرهما في رحلته باسم: زوارة الصغرى، وزوارة الكبرى. (رحلة، ص207، 210). في حين ذكرهما العياشي باسم: الزُّوارات الغربية، والزُّوارات الشرقية. (الرحلة، مج131/1). واتّبَعَهُ في ذلك ووافقه من جاء بعده من الرّحّالة المغاربة، ومنهم: الوزير الشّرقي الإسحاقي (ت: سنة 1150ه/1737م)، (التازي، رحلة الوزير الإسحاقي، ص133، 136). والحُضَيْكِي السّوسِي (ت: سنة 1189ه/1775م)، (الرحلة، ص88). وابن الطّيّب الشّرقي الفاسي (ت: سنة 1170ه/1756م)، (الرحلة، ورقة 42 و) وغيرهم.

في حين يُوَضّح لنا ابن ناصر الدّرعي (ت: سنة 1128ه/1715م)، في رحلته التي عبر بها الأراضي الليبية ما بين سَنَتَي 1121-1122ه/ 1709-1710م، الاختلاف بين هذه التّسميات وما المقصود منها مستفيداً في ذلك مِمّن سبقوه، فَيَذكر:

"الزُّوارات: تُسَمّى الشرقية الزُّوارة الكُبْرَى... وهي قرية أضخم من الزُّوارة الغربية وأكبر غابة... وأما الزُّوارة الغربية فَتُسَمّى الصُّغْرَى... وقد استولى الآن الخَراب على هذه القرية فليس العامر منها إلا بعض الغامر". (ابن ناصر الدرعي، الرحلة، ص670).

وعلى هذا يَتّضح لنا أنّ ابن القادر -ومن قبله الورثيلاني- قد قَصَدَا بالزُّوارة العامرة هي الزُّوارة الشرقية المعروفة بالزُّوارة الكبرى، أمّا الزوارة الخالية فَيَقْصِدُ بها الزُّوارة الغربية المعروفة بالزُّوارة الصّغرى.

ويصف لنا ابن عبد القادر الزّوارات العامرة (الزُّوارة الشرقية = الزُّوارة الكبرى) كيفما رآها وعاينها بنفسه وصفاً شحيحاً مقتضباً مَفَاده:

"وعلى الزّوارات المذكورة نَخيلٌ وبِنَاءٌ غير مُتْقَن وبها مِزاب وغيرهم". (ابن عبد القادر، ورقة 150 و).

ه- التَّجَمُّعَات البَشَرِيّة الأخرى:

إلى جانب ما سبق من مُدُن وبَلْدَات أورد لنا ابن عبد القادر معلومات وتسميات عن بعض البِقَاع والأماكن التي بها تَجَمُّعَات وعُمران بَشَريّ على أرض ليبيا، منها:

قصبة[1] أولاد علي التي تقع في إقليم برقة ما بين العقبتين الصغرى والكبرى، وقد مَر بها ركب ابن عبد القادر مرتين، الأولى في الذهاب، فَعَلَى مَعطن الشماس المذكور سالفاً **"قصبة صغيرة تُعْرَفُ بقصبة أولاد علي معداة لخَزْنِ الشّعير وغيره، حديثة البناء ولم يَبْقَ أثر البناء القديم الذي كان بهذه النواحي. واشْتَرَى الركب من هذه القصبة ما يَكفيه من الشّعير والتّمر المجلوب لها من سِيوَى وذلك في غاية الغلاء".** (ابن عبد القادر، ورقة 41 ظ).

والمرة الثانية في طريق العودة وفيها يقول ابن عبد القادر: **"ومن الغد رحلنا عند الشروق ونزلنا نهاراً بِمَعطن الشّماس والفوار لِشِرَاء الشّعير من قصبة أولاد علي التي هنالك، وبِتْنَا هنالك، واشْتُرِيَ الشعير منها بحساب أربع أواق لِمَدّ فاس الإدريسية".** (ابن عبد القادر، ورقة 129 و).

كما يُخبرنا ابن عبد القادر أنّه وركبه عند مرورهم بساحل حامد -بإزاء مدينة لُبْدَة الأثرية- زاروا ضريح الولي الصالح سيدي بوعصيدة، بِقُبّة على ساحل البحر، فأكرمهم أهل تلك الناحية -في رحلة الإيّاب- وضَيّفوهم بالطعام، الذي اشتهروا به واعتادوا أنْ يُطْعِمُوه لِمَن مَرّ بهم من الحُجّاج وغيرهم. وفي ذلك أورد ابن عبد القادر في مخطوطه قوله:

"مَرَرْنَا نهاراً بضريح الولي سيدي بوعصيدة وتَعَرّض لنا أهل تلك الزاوية بِقِصَعٍ كثيرة من العصيدة يُسَمّونها تلك النواحي البازينة -بباء موحدة وزاي بعد الألف- أَزْيَدُ من أربعين قَصْعَة، وذلك دَأْبهم مع الركب". (ابن عبد القادر، ورقة 136 ظ، 137 و).

وقد انفرد ابن عبد القادر وتَمَيّزَ عَمّنْ سَبقوه من الرّحّالة -من أمثال ابن ناصر الدرعي (الرحلة، ص204، 661) والحُضَيكي (الرحلة، ص88) والورثيلاني (الرحلة، مج219/1، مج717/2) وابن عبد السّلام النّاصري (الرحلة، ص356)- الذين نزلوا هم الآخرون ضُيُوفاً مُكرمين على أهل تلك المنطقة، وأكلوا من هذه العَصيدة وغاب عنهم ذكر اسمها، في حين ذكره ابن عبد القادر وسَجّلَهُ لنا في مخطوطه باسم **"البَازين"**، وهو لا يزال يُعرف إلى يومنا هذا بالاسم نفسه، ويُعَدّ من أشهر وجبات الأطعمة وأعرقها عند أهالي إقليم طرابلس، وهو عصيدة من شعير كانت تُمَثّل الغذاء الرئيس لهم. (الْوَزّان، وصف أفريقيا، 98/2).

ويُضيف الورثيلاني أنّ الولي الصالح الشيخ سيدي بوعصيدة والمرابطين سكان هذه المنطقة عُرفوا باسم بوعصيدة واشتهروا به لِمَا كانوا يُقَدّمونه للحَجيج من عصيدة باللّحم. (الرحلة، مج219/1، مج717/2).

ونرجع لابن عبد القادر ذاكراً لنا تَجَمُّعَاً بَشَرِيّاً آخَرَ في طريق إيّابه، يقع على أرض سرت ما بين مَعْطَن الزعفران وقُصُور حسان، قائلاً فيه:

"ومَرَرْنَا على نَجَع[2] ورْفَلّة وأولاد سليمان واشْتَرَى الرّكب منهم التّمر بِأَبْخَسِ ثمن والغَنَم والإبل والشّعير ...". (ابن عبد القادر، ورقة 135 ظ).

وكذلك يُخبرنا ابن عبد القادر عن عرب المسيكات الذين يستوطنون المنطقة التي تقع شرق التّمِيمي، **فـ "بعد أنْ سَقَى الركب الماء من غدير ماء مطر، وسير هذا اليوم كله مَرْعَى للإبل والبهائم لكثرة الكلأ كأنه**

[1] القصبة: بِنَاءٌ مرتفع يُشْبِهُ الصَّوْمَعة، وبه ردهات تَصلح للبقاء فيها، لدفاع العدو المُغير على البلاد. وتصلح لِخَزْنِ بعض الأشياء. (الزاوي، معجم، ص267).

[2] النَّجَع: جمعها نُجُوع، وهي مستوطنات بَشَرِيّة بَدَوِيّة صغيرة، قَبَلِيّة في أغلبها، متنقلة دائماً، يتبع أهلها مساقط الغيث طلباً للكَلأ والعُشْبَ أينما وُجِد، لذلك يعتمدون على بُيُوت الشّعر (الخِيَام) في إيوائهم. (ابن منظور، لسان، 4353/48. العوامي، ثقافة الرحيل، ص29).

فصل الربيع، وأَتَى عرب تلك البَلد بالغَنم للبيع، وبالتّمر وبالشّعير وبالإبل والسّمن ومن احتاج لِشَيءٍ اشتراه. وغَنَم هذه البلد في غاية السّمن، وهؤلاء العرب يقال لهم المسيكات". (ابن عبد القادر، ورقة 130 و- ظ).

وأيضاً في المنطقة التي بين الزُّوارَتَيْنِ العامرة والخالية **"عرب تلك النواحي يُقَال لهم النّوايل، وهم معروفون بالنّهب للحج وكفى الله أمرهم لأهل الركب...".** (ابن عبد القادر، ورقة 150 و- ظ).

وغير بعيد منهم، وتحديداً في شرقي زُوارة العامرة، وقُبَيل الوصول للزاوية الغربية للقادم من الغرب، نجد هناك **"...المرابطين أولاد بومريم من أهل ذلك الأرض...".** (ابن عبد القادر، ورقة 21 ظ).

هذا إلى جانب غيرها من الأماكن والبِقَاع التي بها عُمْرانٌ بَشَريٌّ وقد ذكرها ابن عبد القادر ولم يُعْطِنَا عنها أيّ أوصاف أو معلومات تُخْبِرُنا بأحوالها في ذلك الوقت، فنجده يَمُرّ على ذكرها سريعاً في أثناء سرده لمراحل رحلته، وتحديده لأماكن نزوله وإقامته ثم ارتحاله، فنقتبس من مخطوطه مما ذكره عنها الآتي:

"ومن الغد بتنا بالحلفية المعروفة بالزّاوية الغربية". (ابن عبد القادر، ورقة 22 و).

"وكان ارتحالنا من محروسة طرابلس يوم الثلاثاء ثامن رمضان المذكور... وبِتْنَا بِتَاجُورة على مسيرة ثلاث ساعات، ومن الغد رحلنا من تَاجورة ...". (ابن عبد القادر، ورقة 24 و).

"وخرجنا من محروسة طرابلس يوم الأحد الثامن من رمضان المُعَظّم وبِتْنَا بالزّنْزُور[1]". (ابن عبد القادر، ورقة 149 ظ).

"ومَرَرْنَا على قَصَبة الجدانية وبِتْنَا بأسفل العَقَبَة الكبرى". (ابن عبد القادر، ورقة 129 ظ).

"وبِتْنَا بِنَجْعِ عبد النّبي...". (ابن عبد القادر، ورقة 131 و).

"... بعد أنْ وَصَلْنَا قُصَيبة وادي أمالوس ويُقَال له سامالوس[2]، بعد العصر على مسيرة سبع ساعات وربع الساعة ...". (ابن عبد القادر، ورقة 39 و).

إلى جانب غيرها التي ذكرها ابن عبد القادر كونها عيون مياه وآباراً ومَعاطن وهي اليوم قُرَى وبَلدات آهلة بالسّكّان، نذكر منها على سبيل المثال:

"مَعطن جَردسن"، (ابن عبد القادر، ورقة 38 ظ). و**"مَعطن النُّخَيّل"،** (ابن عبد القادر، ورقة 39 ظ، 130 ظ). و**"مَعطن التّميمي"،** (ابن عبد القادر، ورقة 39 ظ، 130ظ). وغيرها.

2. وصف الأطلال والآثار:

إلى جانب ما سبق من مادة تاريخية عن بعض عُمران ليبيا ومناطقها الآهلة، زَوّدَنا ابن عبد القادر بأوصافٍ بسيطة عن أطلال بعض المُدُن والبَلدات والقُصُور الخالية وما بَقِيَ من آثارها، سواء تلك التي مَرّ بها أو بجوارها، وكعادة ابن عبد القادر نجده يُطَعّم مادته الوصفية البسيطة عنها بفقرات مقتبسة مما كتبه العياشي فيها من خلال رحلته الشّهيرة.

ويذكر ابن عبد القادر أنه وركبه بمجرد زيارتهم لِسِيدِي بُوعَصيدة سالف الذكر وغيره من الصالحين بقبب على ساحل البحر، بأنهم مَرُّوا **"هنالك بأثر مدينة كانت مَبْنِيّة بالحَجَر المنجور، عليها أثر الضخامة".** كما

[1] الزّنْزُور: تُعرف اليوم وتُكتب باسم "جَنزور"، بقلب الزاي الأولى جيماً. وهي بَلدة غربي مدينة طرابلس بنحو 12كم، اشتهرت قديماً بكثرة الزيتون وجودته. (الزاوي، معجم، ص171-172).

[2] سامالوس أو سملوس: مكان جنوبي الجبل الأخضر، ولا يزال يُعرف بهذا الاسم إلى يومنا هذا. (الزاوي، معجم، ص194).

مَرّوا **"هنالك أيضاً على مدينة متهدمة كانت من الرّخام عليها أثر الضّخامة وما بَقي مَبْنِيّاً بها في غاية الإتقان، وهي في غاية الكبر".** (ابن عبد القادر، ورقة 25 و- ظ).

ويكتفي ابن عبد القادر بهذا القدر، ويستعين بالعَيّاشي في التعريف بهذه المدينة ووصفِ آثارها وصفاً مفيداً يُعطينا انطباعاً عن موقع هذه المدينة وهيكليتها في وقته، مفاده:

"قال أبو سالم في رحلته {(مج181/1)}: وفي هذا المحل الذي قطعنا منه، آثار أبنية كثيرة، وفي سجعه الذي يلي ساحل حامد مَدينة عظيمة يُقَال لها مَدينة لُبْدَة، قد خَلَت في العصور الأوائل، وبقيت آثارها ورسومها قد أكل البحر كثيراً منها، وفيها مَبَانٍ عظيمة وهياكل جسيمة وأبراج خارجها مبنية بالحجر المنحوت في غاية الإتقان، قد هَرم الدّهر وما هرمت، وتعاقبت عليها الأزمنة وما كلمت، فَتَرَى الأبنية ماثلة متقابلة على رؤوس الجبال مَدّ البصر، بحيث يقضي الحدس أنّ كل ما كان داخلها كان مدينة واحدة إلى البحر، وترى أعمدة الرخام وغيرها واقفة في وسط البحر قد أحاط بها الماء بحيث لا يُرْتَاب أنّ البحر قد أكل الكثير منها، ومن هذه المدينة يُنقل كثير من أعمدة الرخام إلى طرابلس وإلى مصر وإلى غيرهما من البلدان". (ابن عبد القادر، ورقة 25 ظ).

ويَسترسل ابن عبد القادر في استخدام نَصّ العياشي -(الرحلة، مج181/1-182)- في الحديث عن تاريخ مدينة لُبْدَة وظروف تأسيسها بما اقتبسه حرفياً فيقول:

"ويُقَال إنّ بانيها الملك دقيوس، وبعد وفاته تَمَلّكَتْهَا امرأة اسمها رومية، وبعضهم ذكر أنّ النّمرود لما بَنَى دمشق بَقي ثلاث سنين وبعث ولده وأمره أنْ يَبني مدينة بالمغرب، فَبَنَى هذه المدينة وجَلَبَ إليها الماء من وادي كعام في بِنَاءٍ مُتْقَن يُحَار الناظر فيه، وأثر البناء وممر الماء باقٍ إلى اليوم مُتّصل من حرف الوادي إلى أطراف المدينة، إلاّ أنّ ماء هذا الوادي الآن قَليلٌ آجن. ويَزعم أهل البلد أنّ ماء هذا الوادي كان حُلْواً غزيراً أيام عمارة المدينة، وكان مما يُؤْثَر عند أهلها إنه إذا بدت الملوحة في ماء الوادي فذلك علامة خرابها، فَلَمّا بدت الملوحة أخذ أهلها في الانتقال منها والله أعلم أيّ ذلك كان. وقد ذكر العبدري[1] هذه المدينة في رحلته وذكر أنه وجدها خالية، والذي يظهر أنها خلت قبل الإسلام إذ لم يذكرها أحدٌ ممن ذكر فتوح إفريقية والله أعلم بغيبه". (ابن عبد القادر، ورقة 25 ظ- 26 و).

ومن مدينة لُبْدَة يسير ابن عبد القادر في طريقه ويبيت ليلته بطرف الهِيشَة واصفاً إيّاها بأنها:

"سِبْخَة مستطيلة وعلى جوانبها بِنَاء قُصُور خالية وفيها نخيل متفرق كأنه رؤوس الشياطين لا ترى أوحش منه ولا أثقل طلعة على الحاج في ذهابه سِيّما المعاود لما يستشعر بعده من المفاوز والمهامه والمعاطش التي يُحَار فيها الدليل، كما لا آنس منه ولا أبهى منه في منظر الأيب[2] لدلالته على انقضاء المَفَازة وقرب العمارة، ونخيلها آخر نخل يراه الذاهب وأول نخل يراه الآيب". (ابن عبد القادر، ورقة 35 و. كذلك العياشي، الرحلة، مج194/1-195).

ويستمر ابن عبد القادر في طريقه عبر صحراء برقة ومُدُنِها إلى أنْ تجاوز التّميمي ومَرّ بجوار ما سَمّاه حبس فرعون، وهو: **"سِجْنٌ مَنْحُوتٌ في حجارة تحت الأرض بابه على وجه الأرض وهو كبير جداً وبه بئر**

[1] أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الْعَبْدَري، حَاجٌّ ورَحّالة مغربي من أصحاب الرحلات الحجازية، مَرّ في طريقه بليبيا وكان حاد النفس متحاملاً في وصف مدنها وأهلها. تُوُفي بعد سنة 700ه/1300م. (العبدري، رحلة، 2005).

[2] الأيب: العودة.

ماء، هكذا أشاع على ألسنة الحُجّاج أنه حبس فرعون كان يسجن به من قاهرة مصر والله أعلم بِغَيبه". (ابن عبد القادر، ورقة 40 و).

ويردف ابن عبد القادر وصفه هذا بتساؤل مفاده: **"وانظر هل هو البيت المنحوت في الحجر الذي ذكر أبو سالم في رحلته {(مج206/1)} أو غيره فإنّه وصفه بما نَصّه: بَيْتٌ مَنحوت في الحجر الصّلد طوله عشرون ذراعاً في مثلها، وبداخله بَيْتٌ آخر نحو نصفه، وفيه غُرَف صِغَار كأنها مخازن، وكل ذلك منقور في الحجر الصّلد نقراً عجيباً مربعاً كهيأة أحسن ما أنت راءٍ من البُيُوت، وبَابٌ مربع كأحسن الأبواب، وعند الباب حُجْرة واسعة منقورة في الحجر أيضاً، فتعجبنا من حسن صنعتها وإتقانها وتدبرنا قوله تعالى:﴿ وتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بِيُوتاً ﴾[1].** (ابن عبد القادر، ورقة 40 و).

أمّا في طريق عودته فنجد ابن عبد القادر يمر على مدينة أجدابية القديمة، التي لم يذكر أنه قد مَرّ بها في طريق ذهابه، وفي ذلك يقول: **"وبِتْنَا بعد قصر جدابية[2] ويقال لها الجابية على مسيرة أربع ساعات إلا ربع الساعة".** (ابن عبد القادر، ورقة 131 ظ- 132 و).

وكلمة القصر تعني البناء الْمُشَيّد العالي المشرف، وهي مشتقة من الحبس والمنع (ياقوت الحموي، معجم، مج354/4). ويصف لنا ابن عبد القادر هذا القصر كما رَآهُ وشَاهَدَهُ بنفسه فيقول:

"وقصر جدابية بِنَاءٌ ضخمة تَداعى للسقوط مَبْنِي بحَجرٍ مَنجور، ولم يبقَ هنالك إلا أقواس وأثر سور وما عدا ذلك سَقَطَ وتَهَدّمَ". (ابن عبد القادر، ورقة 132 و).

ويبدو أنّ هذا القصر هو آخر ما تَبَقّى من القُصُور الثلاث التي ذكرها أبو عبيد الله البكري (ت: 487ه/1094م) في كتابه، بأنها كانت موجودة في مدينة أجدابية حوالي منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، بينها وبين المرسى الذي على البحر ثمانية عشر ميلاً. (البكري، المُغْرِبُ، ص5). التي لم تلبث بمرور الأيام والسّنين أنْ خسرت إحداها، **"فلم يَبْقَ منها إلاّ قصران في الصّحراء"**، كما ذكر الشّريف الإدريسي (ت: سنة 560ه/1164م) في حوالي منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. (الإدريسي، نُزْهَة، مج311/1).

وها هو ذا الزمن وعوامل الطبيعة تلعب دورها من جديد، فنجدها لم تُبْقِ إلّا على قَصْرٍ واحدٍ من القُصُور الثلاثة، الذي تَدَاعَى للسقوط وبقيت أطلاله وأثر سوره كما عاينه ابن عبد القادر بنفسه في أوائل القرن الثالث عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي. (ابن عبد القادر، ورقة 132 و).

ونعود لابن عبد القادر في رحلته، فبعد أنْ أعطانا وصفاً لبقايا هذا القصر المتهالك، يُضيف ويُزَوّدنا بما قاله العياشي -(الرحلة، مج199/1)- عن مدينة أجدابية، حيث ذكر:

"قال أبو سالم في رحلته: وفي هذه الجابية آثار عمارة كثيرة وآبار عظيمة منقورة في الحجر، وبنيان هائل بالحجر المنحوت، وهنالك رسم مسجد قديم تهدم ووجدنا في بعض حِجَاراتِهِ تاريخ بُنيانه منقوش سنة ثلاثمائة". (ابن عبد القادر، ورقة 132 ظ).

---

[1] القرآن الكريم: سورة الشعراء، الآية (149).

[2] وردت هكذا في المخطوط، والمنطقة التي بها القصر المذكور تُعرف اليوم وتكتب "أجدابيا"، وهي مدينة تقع على الطريق الساحلية، غرب مدينة بنغازي بنحو 165كم، وهي مدينة مشهورةٌ معروفةٌ لدى الرّحّالة والجُغرافيين المسلمين، فكتبوا عنها الكثير من النّصوص والفقرات في كتبهم. (شَلّوف، معجم، ص56-66).

وهذا المسجد الذي أشار إليه العياشي بأنّ تاريخ بنائه يرجع لسنة 300ه/912م، هو نفسه الجامع الذي ذكره البكري عند حديثه عن مدينة أجدابية بقوله: **"وبها جَامِعٌ حَسَنُ البِنَاء، بَنَاهُ أبو القاسم بن عُبَيْدِ الله، له صَوْمَعة مثمنة بديعة العمل".** (البكري، المُغْرِبُ، ص5).

وأبو القاسم بن عُبيد الله هو الخليفة الفاطمي الثاني في بلاد المغرب، الْمُتَلَقّب بالقائم بأمر الله (322-334هـ/933-945م). ولا تزال آثار هذا الجامع المذكور موجودة إلى اليوم بجوار مدينة أجدابية الحديثة وهو من أشهر آثارها الإسلامية.

وبعد أجدابية يَسير ابن عبد القادر وقافلته في طريق عودتهم غرباً ملتمسين عيون المياه وآبارها، إلى أَنِ استقى خدمة الركب المياه من منطقة حَسّان، وفي ذلك يقول ابن عبد القادر:

"ومن الغد رحلنا بعد صلاة الصبح وبِتْنَا على مسيرة خمس ساعات ونصف الساعة، بعد أنْ سَقَى خدمة الركب نهاراً الماء من بئر شرف حَسّان ويُقَال لها: دور حَسّان؛ وهو مَاجِلٌ مَنقورٌ في حَجَرٍ يجتمع فيه المطر، فإذا فرغ المجتمع بَقَى مَحَلّه يرشح بماءٍ قليل يجم في قعره يَبُلّ به الظّمْآن فَمَهُ". (ابن عبد القادر، ورقة 135ظ-136 و).

ويبدو أنّ ابن عبد القادر لم يُعَاين المنطقة بنفسه لذلك نجده يَستعين بالعياشي-(الرحلة، مج195/1)- كعادته في وصفها، مقتبساً نَصّهُ حرفياً كما هو للتعريف بها وتوضيح ما يوجد فيها من آثار ذاكراً:

"وبإزاء هذا الماجل قُرَى خالية لم يَبْقَ إلاّ رسومها تُسَمّى فيما مَضَى قُصُور حَسّان إضافةً إلى بانيها، وكان عاملاً لبَنِي أُمَيّة، لمّا نَقَضَ أهل إفريقية العهد في آخر خلافة بَني مروان، بَنَى هُنَالك قُصُوراً وأقام فيها نحواً من ثلاث سنين، حتى افتتحها بعد ذلك حسبما ذكر من أرّخ فتوح إفريقية، وسُمّيَ المكان باسمه إلى الآن، ذكر هذا أبو سالم في رحلته". (ابن عبد القادر، ورقة 136 و).

وفعلاً، فقد عُرِفَتْ هذه المنطقة باسم حَسّان نسبةً إلى التابعي وأحد أشهر قادة الجهاد في المغرب الإسلامي، حَسّان بن النّعمان، الذي أرسله الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (65-86/684-705م)، حوالي سنة 77ه/696م لِفَتْحِ إفريقيّة والمغرب، فَتَغَلّبَتْ عليه جيوش الكاهنة[1] في إفريقية، واضطرّ للرجوع إلى منطقة سرت، وأقام بها نحو خمس سنوات، من سنة 80ه/699م إلى سنة 84ه/703م، وفي هذه المُدّة بَنَى القائد حَسّان هذه القُصُور التي ذكرها ابن عبد القادر نقلاً عن العياشي. (الزاوي، معجم، ص278-279).

وفي زمن رحلة ابن عبد القادر وفي أثنائها كانت أطلال هذه القُصُور وبقاياها لازالت قائمة بمعالمها واضحة لناظرها، تشهد على هذه الفترة المهمة من تاريخ الفتح الإسلامي للمغرب. ويُثْحِفُنَا الأخوان بيتشي (BEECHEY) -اللّذان قاما برحلتهما عبر السّاحل اللّيبي بعد رحلة ابن عبد القادر بحوالي ربع قرن (1237-1238ه/1821-1822م)- بوصفٍ أكثر تفصيلاً عن هذه القُصُور، عند نزولهما بِمِهَادِ حَسّان وحديثهما عنه بقولهم:

"... يمكن اعتماده كمكان أثري، إذْ تتكون بقايا مبانيه من عدد من المباني المربعة شبيهة بتلك القِلاع التي يمكن مشاهدتها على طول الطريق بِدْءاً من هذا المكان حتى مدينة درنة... تحتل هذه الإنشاءات الصغيرة المناطق السهلية إلى جانب الأراضي المرتفعة القريبة، وتتراوح مساحاتها ما بين خمسين إلى مائة متر مربع، أمّا ارتفاعها فَيَستَحيل تحديده لِسُقُوطها وتحولها إلى أنقاضٍ، استخدم المواطنون بعضها في بناء

[1] الكاهنة: امرأة بربرية قوية الشخصية ذكية الفؤاد، اسمها داهيا بنت ماتيا بن تيفان، احترفت السحر والكهانة، وكانت لها حظوة عند قومها. وهي من قبيلة جراوة من زناتة القبيلة البربرية المشهورة التي كانت لها الزعامة والمُلك في جبال أوراس. كان زوجها مَلِكاً على جبال أوراس فترك لها ثلاثة أولاد صغار أوصى بالمُلكِ لهم، فقامت هي مقامهم. (خَطّاب، قادة، 174/1).

الأضرحة ومساكنهم الخاصة، في حين كَسَت الباقي منها ما لا يُحْصَى من الأعشاب، والشجيرات التي قد يصل ارتفاع بعضها إلى أكثر من عشرة أقدام". (بيتشي، الساحل الليبي، ص108).

وها هي ذي اليوم قد اندرست ولم يَبْقَ إلا آثارها، فأصبحت عبارة عن رُبىً غَطّى التّراب ما فيها من حجارة، لا تَدُلّ على ما كان فيها لحَسّان من قُصُور، إلاّ أنّ المكان احتفظ باسم حَسّان وعُرِفَ به تاريخاً وحاضراً. (الزاوي، معجم، ص279).

وأخيراً وليس آخراً هذا كل ما جاد به ابن عبد القادر من أوصافٍ عن بعض الأطلال والآثار الموجودة على أرض ليبيا من خلال مخطوط رحلته الحجازية، وهو في العُموم قليلٌ من كثير، ولا يُعطي انطباعاً حقيقيّاً عن كمية الأطلال والآثار الموجودة في البلاد، التي تصل إلى مواقع ومدن أثرية كاملة.

الخاتمة:

هكذا وفي ختام بحثنا هذا الذي تعرفنا فيه على مخطوط رحلة ابن عبد القادر الفاسي من مدينة فاس إلى الأراضي المقدسة، والذي ترجمنا فيه لصاحبها وتعرفنا على رحلته ومقاصدها وطريق سيره فيها، ثم النسخ الموجودة منها، التي استقطعنا من إحداها ما يخص البلاد الليبية من تدوينات ونصوص وفقرات، والتي بدورها استخلصنا منها ما يُفيدنا في توضيح جغرافية ليبيا وعمرانها وأطلالها وآثارها على ضوء ما ذكره صاحب الرحلة من مشاهداته ومعايناته الخاصة إلى جانب قراءاته وثقافته عنها. ومن خلال ما عرضناه سابقاً نستنتج الآتي:

- تعتبر رحلة ابن عبد القادر -فيما يخص الطريق السّاحلية الليبية- مادة غنية بالمعلومات عن مواطن وجود المياه ومنابعها، إلى جانب جغرافية دقيقة للأماكن والبقاع والأراضي، التي تفيد من يريد طرق هذا الطريق من –الحُجّاج والتجار والعلماء وغيرهم- ويستفيد مِمّا جاء فيها من تعليقات ابن عبد القادر وتنويهاته بها. ولاسيما ما تخللته هذه الجغرافية من تَحديدٍ دقيق وفريد للمسافات من مكان إلى آخر وحسابها بالساعات تارة وبالمراحل تارة أخرى. فإنّ ما أورده ابن عبد القادر عن هذا الموضوع بالخصوص يُعَدّ إضافة جديدة للجغرافية التاريخية الليبية، حيث تَفَوّق ابن عبد القادر في عرض مادته عنها على نُظَرَائه في هذا المجال من الرّحّالة والجغرافيّين المسلمين في ذلك الوقت. ومما جعله متميزاً -كما كان واضحاً- أنّه إلى جانب مشاهداته الحَيّة ومعايناته المباشرة، كان قد هضم ما ورد في كتب من سَبقوه من الرحالة، واستوعب ما جاء فيها من جغرافية الطريق الليبية، وهذا ما لاحظناه من خلال قراءتنا المتأنية لمادة رحلته.

- أما عن عُمران ليبيا ومُدُنها وبُلدانها وقُراها فإنّ مادته عنها جاءت أخف زخماً وأقل فعالية، ويبدو أنّ السبب في ذلك أنه لم يكن مولعاً بهذا النوع من المشاهدات وما يخلفها من تدوينات. وفيما يخص معايناته الشخصية عن الأطلال والآثار وبقايا العُمران فقد جاءت مقتضبة وشحيحة في غالبها. لذلك نجده يعوض النقص فيها بالاستعانة بما جاء عنها في رحلة العياشي. وهذا من وجهة نظرنا لا يَعيب الرحلة أو يُنْقِصُ من قيمة ما جاء فيها من مادة أخرى تحتاج إلى دراسات أخرى. حيث إنّنا لن ننتظر من صاحب هذه الرّحلة على وجه الخصوص أو من غيره من الرحالة المغاربة على وجه العموم، أن يهتموا –في تدوين مشاهداتهم- بالأطلال والآثار والركام على حساب اهتماماتهم الأخرى، التي تكون في المقام الأول -كما عَوّدُونا- مُنْصَبّةٌ على إعطاء انطباعاتهم عَمّا شاهدوه من أوضاع الناس ومعايشهم، والتركيز على حياتهم الدينية ومراتبهم العلمية وما يتبع ذلك من تقويمٍ لبيئتهم الثقافية، ولاسيما أنّ أغلب هؤلاء الحُجّاج هم من فئة المشايخ والفقهاء ومن أهل العلم، الذين غَلَبَ عليهم الجانب الديني العلميّ في تكوينهم، والله أعلم بعباده المسلمين.

- كما لاحظنا وذكرنا ونَوّهنا أنّ ابن عبد القادر كان كثير الاستعانة في عرض مادته عن ليبيا، بما ذكره العياشي عنها في رحلته، وذلك كي يُرَمّم ما نقص عنده من وصف، ويُطَعّم مُدَوّنات رحلته بما يُفيدها ويجعلها حَسَنَةً في نظر قارئها. لهذا نجده لا يستغني عن رحلة العياشي طوال تدوينه لرحلته ذهاباً وإيّاباً، فيستعين بنصوصها أحياناً في ذكر أشياءَ لم يراها ومن ثَمّ يأتينا بوصفها، وفي أحايين أخرى يستعين بها إضافةً لجزئيات لم يستوفِ حَقّها في العرض فَيُكْمِلُهَا منها، هذا إلى جانب لطائف تاريخية وعلمية وفقهية يُوردها ابن عبد القادر عن العياشي على سبيل الاطلاع والمعرفة. وهو عندما يفعل ذلك ليس مَنْقَصة في جهده أو قُصُوراً في مشاهداته أو ضُعْفاً في تدويناته، إنّما يرجع -على حسب اعتقادنا- إلى أنّ ابن عبد القادر كان يرغب في تدعيم كتابه وتقويته وذلك بالأخذ من عالم جليل ثقة، فقيه زمانه وفريد عصره مثل العياشي. فهو يرى بالاستعانة به تعزيزاً لمصداقية رحلته وإثراءً لمادة كتابه، لهذا نجده يستغل -خلال تدوينه لرحلته- موضوعات الكتابة ويقتنصها لكي يأخذ مما جاء عند العياشي فيها، وهو عندما يفعل ذلك لا يُخْفِي استعانته بتلك النّصوص بل يُشير إليها في معظم الوقت بكل صدق وأمانة.

التّوصيات:

تُوَصّي الدراسة -بعد عرض موضوعاتها والانتهاء منها- الباحثين المهتمين بتاريخ ليبيا إلى زيادة دراسة رحلة ابن عبد القادر الحجازية، لإخراج ما يمكن إخراجه من فوائدها ومعلوماتها الغنية عن ليبيا في ذلك الوقت. فهذا المخطوط لا يزال يحتاج إلى المزيد من الدراسات والبحوث المعمقة، للكشف عَمّا جاء فيه من مادة عن أوضاع ليبيا السياسية وأحوال أهلها الاقتصادية والاجتماعية إلى جانب حياتهم الدينية والعلمية. فالمخطوط على حسب دراستنا له لا يزال فيه من المادة الخام ما تُغَطّي هذه الجوانب وتُثْريها إن شاء الله.

كما تُوَصّي الدراسة الباحثين المهتمين بعلم المخطوطات والوثائق بالعمل على تجميع ما وُجِدَ من نسخ الرحلة الحجازية لابن عبد القادر الفاسي، والعمل على تحقيقها ثم طباعتها ونشرها، للاستفادة مما جاء فيها، ولاسيّما أنها زاخرة بمادتها فيما يخص الأقطار الأخرى عدا ليبيا التي مَرّ بها المؤلف أو مكث فيها، منها القاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرها من المُدُن والبِقَاع والأماكن التي نزلها ابن عبد القادر كونها محطات وضَمّنها في مخطوط رحلته.

والله من وراء القصد...

مصادر البحث ومراجعه:

- القرآن الكريم (برواية قالون عن نافع المدني).

أولاً: المصادر:

1- المصادر المخطوطة:

- أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي. (مخطوط مصور). رحلة ابن عبد القادر الفاسي من مدينة فاس. تحت رقم حفظ (1054 جغرافيا)، وميكروفيلم (48116). القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.
- أبو محمد عبد المجيد بن علي بن محمد الزبادي الفاسي المنالي (مخطوط مصور). بُلُوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام. تحت رقم حفظ (D1808). الرباط: الخزانة العامة.
- شمس الدين محمد بن الطَّيِّب الشّرقيّ الفاسيّ (مخطوط). الرّحلة الحجازيّة. تحث رقم حفظ (746). فيينا: جامعة لايبزيك.

2- المصادر المطبوعة:

- أبو سالم عبد الله بن محمد العَيّاشي. (2006). الرّحلة العَيّاشيّة 1661-1663م. (الطبعة 1). (سعيد الفاضلي، وسليمان القرشي، المحققون) أبو ظبي: دار السّويدي للنشر والتوزيع.
- أبو العباس أحمد بن محمد ابن ناصر الدَّرْعي. (2011م). الرحلة الناصريّة 1709-1710م. (الطبعة 1). (عبد الحفيظ ملوكي، المقدم والمحقق) أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع.

- أبو عبد الله محمد بن أحمد الحُضَيْكِي السّوسي. (2011). الرحلة الحجازية. (الطبعة 1). (عبد العالي لمدبر، المحقق) الرباط: مركز الدراسات والأبحاث والتراث.
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحَمّودي الحَسني. (2002). كتاب نُزْهَة المُشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود الْعَبْدَري. (2005). رحلة الْعَبْدَري. (الطبعة 2). (علي إبراهيم كردي، المقدم والمحقق) دمشق: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع.
- أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البَكْريّ. (دون تاريخ). الْمُغْرِبُ في ذكر بلاد إفريقية والْمَغْرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك). القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
- أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي. (1889). نُبَذ من كِتاب الْخَرَاج وصنعة الكتابة (جاء مع كتاب الْمَسَالك والْمَمَالك لابن خُرْدَاذْبَهْ). مدينة ليدن المحروسة: مطبعة بريل.
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن مَنْظور. (دون تاريخ). لسان العرب. (عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، المحقّقون) القاهرة: دار المعارف.
- سيدي الحسين بن محمد. (2008). الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. (الطبعة 1). (محمد بن أبي شنب) القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- شِهَاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. (1977). معجم البلدان. بيروت: دار صادر.
- عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الفاسي الفهري. (2008). الإعلام بمن غبر من أهل القرن لحادي عشر (الطبعة 1). (فاطمة نافع، المحقق) الدار البيضاء-بيروت: مركز التراث الثقافي المغربي-دار ابن حزم.
- محمد بن أحمد الحُضَيْكِي. (2006). طبقات الحُضَيْكِي. (الطبعة 1). (أحمد بومزكو، المقدم والمحقق) الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- محمد بن عثمان الحشائشي. (1965). رحلة الحشائشي إلى ليبيا سنة 1895م "جلاء الكرب عن طرابلس الغرب". (الطبعة 1). (علي مصطفى المصراتي، المقدم والمحقق) بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر.

ثانياً: المراجع:

1- الكتب والقواميس والموسوعات:

- إسماعيل رأفت بك. (1329هـ). التّبيان في تخطيط البلدان. (الطبعة 1). القاهرة: مطبعة محمد محمد مطر الوراق.
- حفناوي بعلي. (2020). موسوعة الرحلات الحجازية. عمان: منشورات دار الأيام.
- خير الدين الزّرِكْلي. (2002). الأعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. (الطبعة 15). بيروت: دار العلم للملايين.
- رمضان الصالحين العوامي. (2010). ثقافة الرحيل. (الطبعة 1). طرابلس: المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية.
- الطّاهر أحمد الزّاوي. (1968). معجم البلدان الليبية. (الطبعة 1). طرابلس: مكتبة النور.
- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني. (1982). فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسَلسَلات. (الطبعة 2). (إحسان عبّاس، الْمُعْتَنِي) بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- عبد السّلام بن عبد القادر بن سودَة. (1950). دليل مؤرخ المغرب الأقصى. (الطبعة 1). تطوان: المطبعة الحسنية.
- عبد السلام محمد شَلّوف. (2009). مُعْجَم المواقع والوقائع الليبية - أسماء وتواريخ المدن والقرى والأماكن الليبية. (الطبعة 1). بنغازي: شركة المجموعة الوطنية للهندسة والانشاءات العامة - دار ومكتبة الفضيل.
- عبد الهادي التازي. (2008). بين المغرب وليبيا - ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي "أمير مغربي من طرابلس". (الطبعة 1). الجماهيرية العربية الليبية: المؤسسة العامة للثقافة.
- عبد الهادي التازي. (2005). رحلة الرحلات - مَكّة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مكة المكرمة: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.
- مجموعة مؤلفين. (1996). موسوعة أعلام المغرب. (الطبعة 1). (محمد حَجّي، المنسق والمحقق) بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- محمود شيت خَطّاب. (1984). قادة فتح المغرب الإسلامي. (الطبعة 7). بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- هنري و. بيتشي، وفريدرك و. بيتشي. (1996). الأخوان بيتشي والسّاحل اللّيبي 1821-1822. (الطبعة 1). (الهادي مصطفى أبو لقمة، المترجم) بنغازي: منشورات جامعة قاريونس.

2- المجلات والدوريات:

- محمد الأخضر. (غشت، 1974). من أعلام العصر العلوي الثاني- التّاودي بن سُودة. مجلة دعوة الحق. (العدد 7، السنة 16).

- محمد الأخضر. (نونبر، 1974). أعلام من العصر العلوي الثاني- أبو مدين الفاسي 1112-1181/1701-1768. مجلة دعوة الحق. (العدد 8، السنة 16).
- محمد الفاسي. (يناير، 1959). الرّحّالة المغاربة وآثارهم. مجلة دعوة الحق. (العدد 4، السنة 2).

3- رسائل علمية غير منشورة:

- ساجدة عبد كاظم الحساني: رحلات المغاربة والأندلسيين إلى الحجاز في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ كلية الآداب جامعة الكوفة (2010م).

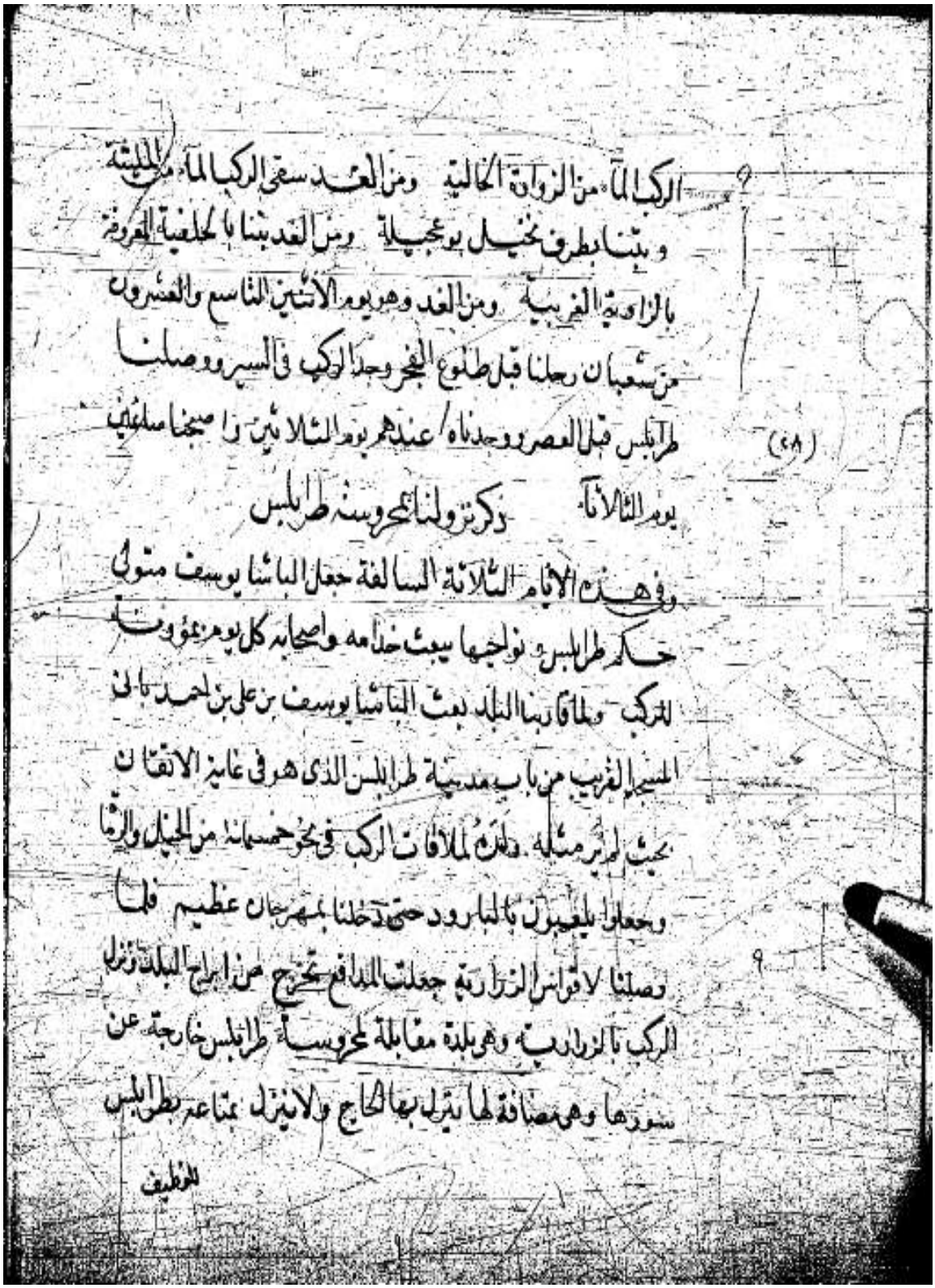
ISSN للنسخة الإلكترونية: 2523 – 1871



بسم الله الرحمن الرحيم

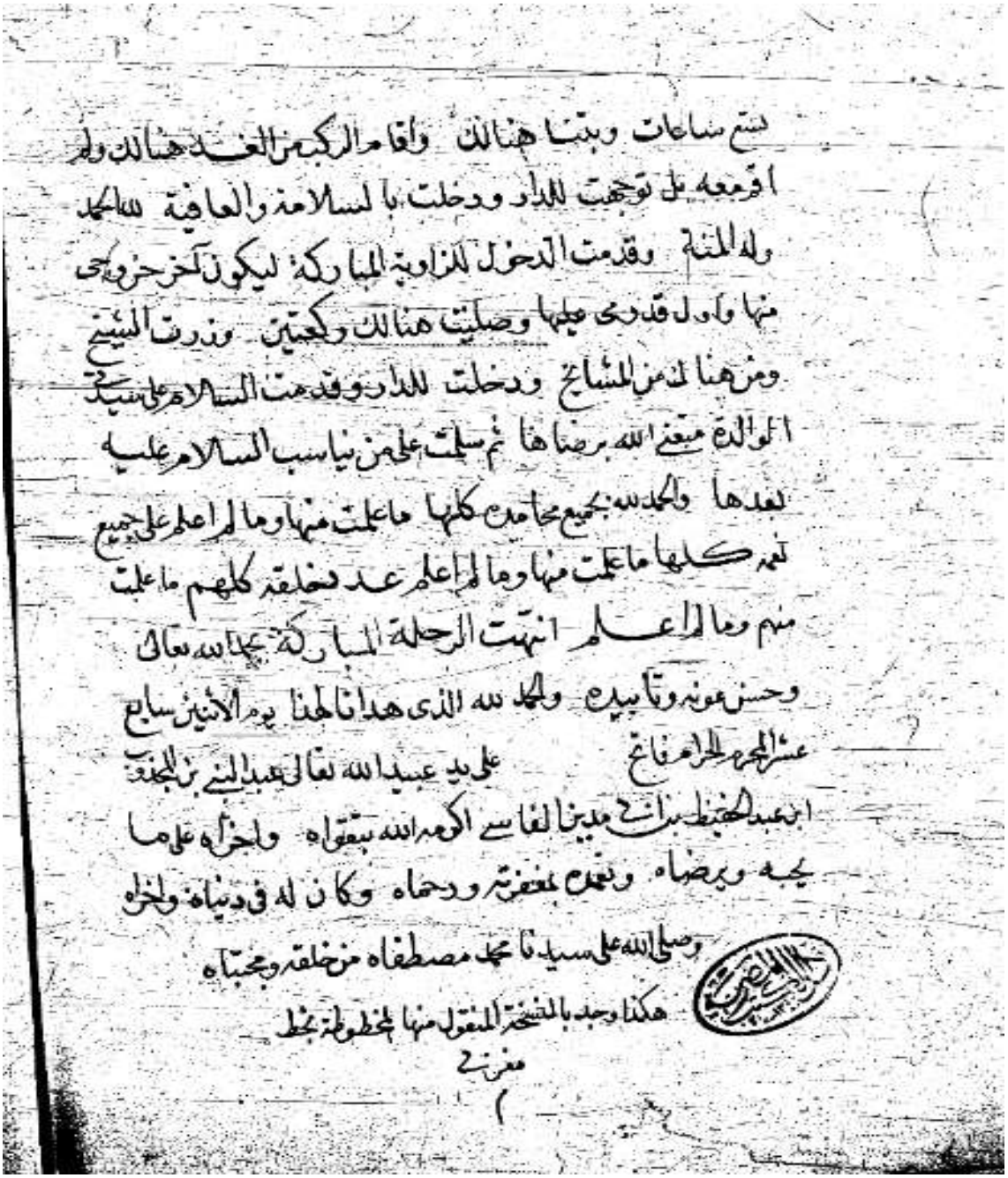
الورقة (2 وجه) من المخطوط وفيها مقدمة وذكر خروج المؤلف من مدينة فاس حرسها الله

ISSN للنسخة الإلكترونية: 2523 – 1871



الركب الماء من الزوارة الحالية ومن العد سقى الركب الماء من المدينة
وبتنا بطرف نخيل يوعجيلة ومن الغد بتنا بالحلقة المعروفة
بالزاوية الغربية ومن الغد وهو يوم الاثنين التاسع والعشرون
من شعبان رحلنا قبل طلوع الفجر وجد الركب في السير ووصلنا
طرابلس قبل العصر ووجدناه عندهم يوم الثلاثين وأصبحنا سلخ
يوم الثلاثاء ذكر تولنا محروسة طرابلس
وفي هذه الأيام الثلاثة السالفة جعل الباشا يوسف منتوى
حاكم طرابلس ونواحيها سبعة خدامه وأصحابه كل يوم يقوم
للركب ولما قاربنا البلد بعث الباشا يوسف بن علي بن أحمد باني
المسجد الغريب من باب مدينة طرابلس الذي هو في غاية الاتقان
بحيث لم ير مثله. ولما لاقانا الركب في نحو خمسمائة من الخيل والرماة
وجعلوا يلعبون بالبارود حتى دخلنا بمهرجان عظيم فلما
وصلنا لاقوا من الزاوية جعلت المدافع تخرج من أبراج البلد ونزل
الركب بالزاوية وهي بلدة مقابلة لمحروسة طرابلس خارجة عن
سورها وهي مضافة لها يترل بها الحاج ولا ينزل بمتاعه بطرابلس
للتطفيف

الورقة (22 وجه) من المخطوط وفيها ذكر نزول المؤلف بمدينة طرابلس حفظها الله



الورقة الأخيرة من المخطوط وفيها نهاية الرحلة

The geography of Libya and its urbanization through the manuscript of the Hejaz journey of Ibn Abdul Qadir al-Fassi

1211-1212 H/1796-1797 C.E

By:

Ramdan M Ramdan Alhmar

Ramdan.alahmar@uob.edu.ly

Abstract

Travel books gained special importance in the process of historical writing and at revealing the history of peoples and nations. Moreover, among these trips were the Moroccan Journeys to the Holy Lands, that known in history as the Hejaz trips. Libya had a large share of the writings of these trips especially that the cities, villages and lands of Libya were as the link and the road linking the Maghreb and the East countries. In this research, we aim to knowing one of these the Hijazi trips and work on extracting what mentioned in it about Libya from views and previews recorded by its writer. This trip is still an unpublished manuscript and it is "the journey of Ibn Abd al-Qadir al-Fassi from the city of Fas". Moreover, by using the historical inductive method, which depends on quote historical texts from its sources, then extrapolate it, understand it, and use it afterwards, the study was able to identify the geography and urbanization of Libya through the notes made by the traveler in his manuscript. The study also concluded, after its completion, that the author's information on the geography and urbanization of Libya was accurate, abundant, and rich in details that we did not find it in other Journeys, which made this journey, is distinctive and its manuscript is important. Finally, the study ended with a recommendation to those interested in Libyan history to increase interest in the manuscript of this journey and work on extracting what it contains at historical material, it is useful in revealing the political situation of Libya and knowing the economic, social and cultural conditions of its people at the contemporary period of the journey.

Key words: The journey, Ibn Abd al-Qadir, Libya, geography, urbanization.